الجماعة في الإسلام
المشروعية والإطار

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ – ١٩٩٥م

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م



الجماعة في الإسلام

المشروعية والإطار

الدكتور غازي التوبة



مقدمة

مقدمة الطبعة الأولى

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ (آل عمران) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ (النساء) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ (الأحزاب) ، أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشرّ الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بِدعة، وكل بِدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. أمّا بعد:

يعاني المسلمون من مشاكل متعدّدة في العصر الحاضر تحول بينهم وبين تحقيق أهدافهم في الأرض، ومن هذه المشاكل: الاختلاف في حكم الانتماء إلى الجماعة في الإسلام، واضطراب الفقه المتعلّق به، وتفاوت المفتين في حكمهم عليه بين مُفتٍ بتحريمه ومُفتٍ بوجوبه، ومُفتٍ بتراوح بين الوجوب والإباحة حسب الهدف الذي تسعى الجماعة إلى تحقيقه، وإنّ هذا الاضطراب الواسع في الحكم الفقهي انعكس على الجماعات الإسلامية التي استهدفت تحكيم الإسلام في الأرض، وإعادة الخليفة إلى سدّة السلطة، انعكس عليها فجعل جمهورها من المسلمين محدوداً، وجعل المسلمين غير المنتمين إلى جماعات أكثر عدداً من المنتمين، ممّا جعل هذه الجماعات تفقد عنصراً أساسياً من عناصر القدرة على التغيير، لذلك أحببت أن ألج هذا الموضوع في تحرّي الحكم الشرعي المتعلّق بالجماعة في عصرنا الحاضر، فألّفتُ هذا الكتاب الذي بدأته بالحديث عن وضع المسلمين بعد الحرب العالمية وبالذات بعد سقوط الخلافة العثمانية، وبيّنتُ بعض الظواهر التي رافقت هذا السقوط والتي رافقت الجماعات الإسلامية التي استهدفت إعادة الخلافة والحكم الإسلامي وبيّنت أسبابها، ثم وضّحتُ حكم الانتماء انطلاقاً من مصادر الحكم

الشرعي وهي: القرآن الكريم والسُنّة المشرّفة، ثم بيّنتُ دور علماء المسلمين في المحافظة على جماعة المسلمين، ثم بيّنتُ معنى الجماعة نقلاً عن الشاطبي، ثم وضّحتُ حيوية البناء الإسلامي التي قامت على أنّ هناك طائفة ظاهرة على مدار التاريخ الإسلامي تجبر النقص الذي قد تقع فيه الدولة، وجاءت شهادة التاريخ تؤكّد تلك الحقيقة، ثم وَضّحتُ الصفات المشتركة بين علماء الطائفة الظاهرة التي يمكن أن نستنير بها في وقتنا الحاضر، ثم بيّنتُ الموقف الشرعي من الجماعة في العصر الحاضر الذي يمكن أن ننتهي إليه اعتماداً على كل الحقائق السابقة.

وفي الختام آمل أن أكون قد حقّقت ما أصبو إليه، وهُديت إلى الصواب فإن أصبت الحق فذلك فضل من الله، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مقدمة الطبعة الثانية

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ (آل عمران) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ (النساء) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ (الأحزاب) ، أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشرّ الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بِدعة، وكل بِدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. أمّا بعد:

كنت قد ألّفت كتاب "الجماعة في الإسلام: المشروعية والإطار" قبل عقد ونصف، وقصدت من تأليفه الإجابة على سؤال مهم في ساحة العمل الإسلامي، وهو: ما حكم الانتماء إلى جماعة معاصرة؟ هل هو الوجوب؟ أم التحريم؟ أم حسب أهداف الجماعة؟ ، وأرجّح أن السؤال مازال مطروحاً، ومازالت الإجابة مطلوبة، لذلك عملت على إعادة طباعته طبعة ثانية.

وقد اجتهدت في هذه الطبعة الثانية أن أبذل مزيداً من الجهد في تحقيق نصوص الحديث الشريف، وكذلك في تمحيص الروايات التاريخية، لتكون أدنى للصحة والصواب في كل أحكامها، كما اجتهدت أن أزيد في جلاء أفكارها حتى تحقّق الغاية المرجوّة منها.

وإنني أعتقد أنّ بناء الجانب الجماعي في الفرد والأمّة مازال يحتاج إلى دراسات أعمق وأوسع على ضوء المشاكل التي أفرزتها الحضارة الغربية في مسيرتنا الحديثة. لذلك أسأل الله تعالى أن يمنحني الطاقة والوقت اللذين أستطيع بهما أن أكتب في هذا المجال. كما أسأل الله تعالى أن تحقّق هذه الطبعة الغاية المرجوّة منها في إفادة العاملين في الحقل الإسلامي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكويت في / الإثنين

٢٠ من جمادى الأولى ١٤٣٤هـ

١ نيسان (أبريل) ٢٠١٣م

كتبه

الدكتور غازي التوبة

altawbah939@hotmail.com

الفصل الأول

نظرة تاريخية على الناحية الجماعية



أولاً :

مدخل

تنزّل الوحي على الرسول ﷺ في غار حراء بكلمة (اقرأ)، فصدع الرسول الكريم ﷺ بالأمر، فدعا إلى توحيد الله وعبادته وحده، وإلى نبذ الشرك، وكَوَّنَ جماعة تأتمر بأمره وتدعو إلى ما يدعو إليه، وخاض ﷺ معركة شرسة مع المشركين، دارت حول أصول دعوته، كما طالت هذه المعركة جماعته، فاجتهد المشركون في إيذاء أفرادها، وفي اضطهادهم، وفي تعريضهم للفتنة في دينهم، وفي صدّهم عن الإيمان والارتباط برسولهم ﷺ، لكنّ الرسول ثبت وثبت معه صحابته، ثم أكرم الله تعالى رسوله ﷺ بأن مكّنه في الأرض، فهاجر إلى المدينة، وأمر أصحابه بالهجرة إليها أيضاً، واجتمع في المدينة المهاجرون والأنصار، وأصبحوا جماعة المسلمين، وأنفذ فيهم رسول الله شريعة الله، ثم اتسعت رقعة التمكين حتى شملت الجزيرة العربية كلها في حياة الرسول ﷺ، ثم توالى الخلفاء الراشدون بعد الرسول ﷺ، فكانوا هم الأئمّة الذين يقودون جماعة المسلمين، ويحكمون فيها بوحي الله، ثم جاءت الدولة الأموية، وقاد الخلفاء الأمويون المسلمين، وبرز دور العلماء المسلمين الذين هم ورثة الأنبياء، فسدّوا النقص الذي

كان يقع فيه الخلفاء الأمويون، ثم جاء من بعدهم الخلفاء العبّاسيون، وتلاهم الخلفاء العثمانيون، وفي كل الأحوال كانت جماعة المسلمين واحدة وكان يقودها ذلك الخليفة سواء كان أموياً أم عباسياً أم عثمانياً، وكان العلماء يقومون بدور الموجّه لهذه الجماعة، المسدّد لمسيرتها، الجابر لنقصها.

صحيح أنه كان يستأثر بعض الأمراء أو الولاة بولاية من الولايات الإسلامية، وقد يحصل بعضهم على نوع من الاستقلال الإداري في فترة من فترات التاريخ الإسلامي، لكنّ المسلمين كانوا يبقون متصلين مع بعضهم، غير متأثّرين بهذا الاستقلال، أو قل بهذا الاستئثار، مجسّدين حقيقة أنهم جماعة واحدة هي جماعة المسلمين، وكان العلماء يزيدون من لحمة هذه الجماعة بكونهم نقاط اجتماع المسلمين وتجمّعهم.

ثم لما ضعفت الخلافة العثمانية في آخر عهدها، وضعف كل جزء من الجسم الإسلامي بضعفها، بقي الخليفة العثماني مخيفاً لأوروبا عندما كان يهدّدها بأنه سيطالب المسلمين بفعل شيء ضد مصالح دولة من دول أوروبا، لأنه كان يعتبر نفسه إمام جماعة المسلمين، وكان المسلمين يعتبرونه كذلك.

ثم وقعت الحرب العالمية الأولى، وخاضتها الخلافة العثمانية إلى جانب ألمانيا وضد إنجلترا وفرنسا، ولكنّ الحرب انتهت بانتصار إنجلترا وفرنسا وهزيمة ألمانيا والخلافة العثمانية، وتقاسمت إنجلترا وفرنسا بلاد الشام والعراق، وبدأت مرحلة جديدة في حياة الأُمّة الإسلامية لم تعرفها ولا مرّة واحدة في تاريخها الذي امتد ثلاثة عشر قرناً ونيفاً، هذه المرحلة تتميّز بثلاثة أمور:

١- إزالة الخلافة والخليفة من حياة المسلمين، وهذا يعني أنّ المسلمين أصبحوا بلا إمام يقودهم.

٢- إزاحة الشرع الإسلامي واستبداله بقوانين مستمدّة من تشريعات فرنسا وإنجلترا وسويسرا.

٣- انفراط عقد جماعة المسلمين [1] نتيجة غياب الإمام بمعناها التجمّعي الاجتماعي.

---

(١) هناك معنيان لجماعة المسلمين:

الأول: الاجتماع على الحق الذي ورد في الكتاب والسُنّة والخروج عنه بدعة وضلال. =

والآن على ضوء ذلك برزت ظاهرة جديدة هي دعوة بعض العلماء المسلمين إلى إعادة الخلافة وإعادة الاحتكام إلى الشرع، واعتبروا هذا واجباً أوّلياً، واستجاب بعض المسلمين لهذه الدعوة، ونظّم المجتمعون أنفسهم، فنصّبوا لهم أميراً، ودعوا أقوامهم إلى تطبيق الإسلام، وحذّروهم من أعدائه، وحدث اختلاف حول هذا الاجتماع: ما حكمه؟ هل هو واجب؟ أم مندوب؟ أم حرام؟ أم مكروه؟

واضطربت الفتاوى حول الموضوع، فما هو الجواب الحق لهذا السؤال؟ وما هو القول الفصل فيه؟؟

هذا ما سنجتهد في الإجابة عليه في الفصول القادمة، ولكن قبل الشروع في تفصيل الإجابة، سنرى كيف مشت الأمور مع المسلمين بعد الحرب العالمية الأولى.

= الثاني: الاجتماع على إمام المسلمين وطاعته، والخروج عليه بغي وعدوان.

هذا وتجد تفصيل هذين المعنيين في ص (١١١) من هذا الكتاب.

ثانياً :



أوضاع المسلمين بعد الحرب العالمية الأولى

عمّ الاستعمار الأوروبي بقية البلدان العربية التي لم تكن مستعمرة بعد الحرب العالمية الأولى، فقد دخل الاستعمار الفرنسي إلى سورية ولبنان، والاستعمار الإنجليزي إلى فلسطين والأردن والعراق، وكان الاستعمار الإنجليزي قد استعمر مصر وعدن والهند في القرن التاسع عشر، وكان الاستعمار الفرنسي قد استعمر كلاً من الجزائر وتونس والمغرب في القرن التاسع عشر كذلك، وكان الاستعمار الإيطالي قد حاز على ليبيا في مطلع القرن العشرين أيضاً، إذن بهذه الصورة كان قد تم استعمار جميع البلاد العربية والإسلامية ما عدا النزر القليل.

وقد أنعش الاستعمار الطوائف والأقليّات الدينية اقتصادياً بأن اعتمد على بعضها في دوائره الحكومية حيناً وفي قواته العسكرية حيناً آخر، وحسّن من وضعها المعنوي بأن قدّمها في السلّم الاجتماعي، فكيف أصبحت صورة الطوائف بعد الحرب العالمية الثانية غداة استقلال الدول العربية؟ وماذا حدث لأهل السُنّة؟ كذلك ماذا كانت صورة

الجماعات التي سعت إلى إقامة الخلافة؟ هل نجحت في استقطاب الجماهير من أجل أهدافها التي قامت بها؟ أم لا؟

وإنّ المتأمّل لأوضاع أهل السُنّة وللجماعات الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية يجد ثلاث ظواهر هي:

الظاهرة الأولى: **خسارة أهل السُنّة لبعض مواقعهم:**

يلحظ المتتبع لأحوال الجماعات والملل والطوائف في العالم الإسلامي في العقدين الماضيين خسارة أهل السُنّة المتتالية لبعض مواقعهم في عدد من البلدان، وأبرزها: سورية ولبنان والعراق والخليج؛ ولا يتوقّف الأمر على هذه الخسارة، لكنّ الظواهر تشير إلى أنّ هناك أماكن مرشّحة لمثل هذه الخسارة، منها: مصر وباكستان والمغرب العربي بشكل عام، وليس من شك بأنّ هذه الخسارة كانت كسباً لطوائف أخرى، والسؤال الآن: لماذا خسر أهل السُنّة بالذات في حين أنّ الطوائف الأخرى لم تخسر شيئاً من مواقعها؟

السبب الرئيسي في ذلك هو أنهم لا يملكون إطاراً تنظيمياً يقودهم ويُبَصِّرهم بما فيه مصلحتهم، ويبعدهم عمّا فيه ضرر لهم، ويأخذ بأيديهم

إلى ما فيه خير لهم، في حين أنّ الطوائف الأخرى ملكت مثل هذا الإطار مما ساعدها على ألاّ تخسر شيئاً، وإنّ افتقاد أهل السُنّة لمثل هذا الإطار التنظيمي القائد جعلها سريعة التفاعل مع قيادات في الأصل مخالفة لها في المنهج إن لم تكن معادية، مما جعل هذا التفاعل السريع وبالاً عليها وعلى الأُمّة بشكل عام.

الظاهرة الثانية: **محدودية جمهور جماعات أهل السُنّة:**

إنّ الجماعات الإسلامية التي نشأت في العصر الحديث في العالم الإسلامي ضمن نطاق أهل السُنّة سعت إلى تحقيق أهداف الإسلام، ودافعت عن حقائقه في وجه المشكّكين والمرجفين، كما دافعت عن مصالح المسلمين بشكل عام، وتصدّت للاستعمار بشكل خاص، كما بذلت جهوداً كثيرة من أجل رفع الظلم عنهم، والمدافعة عن هويتهم الثقافية والتاريخية، بالإضافة إلى واجبات أخرى قامت بها لا مجال لحصرها، ولكننا نجد أنّ هذه الجماعات بقيت محدودة الجماهير، تعاني من قلّة تفاعل المسلمين معها، وقلّة المقبلين عليها، والمندرجين تحت لوائها، والمرتبطين بها ارتباطاً دائماً مستمراً، مما جعل الجماعات الإسلامية متعثّرة

إلى الآن في تحقيق أهدافها الرئيسية، وجعل أعداء الأُمّة أكثر تمكّناً من تحقيق أهدافهم بمرور الزمن.

ما سبب هذه الظاهرة؟ وما هو تعليلها؟ هناك سببان:

الأول: عَرَف أهل السُنّة نوعاً واحداً من القيادة هي قيادة خليفة المسلمين، ونوعاً واحداً من الجماعة هي جماعة المسلمين، وقد كرّس الفقه الإسلامي شرعية ذلك الخليفة وشرعية تلك الجماعة، وهو محقّ في ذلك، واعتبر الفقه الإسلامي -على مدار التاريخ- أنّ تشكيل أيّة جماعة أخرى خروجاً على جماعة المسلمين، فمن قام بذلك فقد احتمل وزراً عظيماً وإن مات على ذلك فميتته جاهلية، وإنّ عدم الخروج عن الخليفة هو أحد الصفات التي امتازت بها جماعة أهل السُنّة. إنّ هذا المناخ الفقهي المعادي لتشكيل أيّة جماعات مازال هو المخيِّم والنافذ عند أهل السُنّة، لذلك فإنّ إنشاء أيّة جماعة يتعامل معها وكأنه خروج عن جماعة المسلمين، مع أنّ الوضع قد اختلف، ولم يعد هناك وجود لجماعة المسلمين التي يعتبر تشكيل جماعة خروجاً عنها، فإنّ ذلك حكم واحد لقضيّتين مختلفتين ولواقعين مختلفين، بالإضافة إلى أنّ الأحزاب التي تشكّلت في العصر

الحديث كانت علمانية معادية للدين في نشأتها مما زاد من نفور المسلم من التجمّعات بشكل عام.

الثاني: إنّ الانتماء إلى جماعة يحتاج إلى نوع معيّن من الأخلاق، منها: الإيثار والتضحية والغَيْريّة: إيثار الآخرين وتقديمهم على الذات، والتضحية بكثير من الملذّات الفردية في سبيل مصلحة الجماعة، والغَيْريّة التي يقبل بها الفرد الآخرين ويبني معهم.

ومن هنا كان الأمر من الله للرسول ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ (الكهف،٢٨) له دلالة رئيسية وهي: أنّ اللقاء مع الآخرين متعب وفيه مشقّة ويحتاج أن يصبّر المرء نفسه عليه.

والحقيقة أنّ ضعف هذه الأخلاق الجماعية في الشخصية الإسلامية ناتج من ترسّخ أخلاق مضادة نتيجة ضعف عام في الشخصية الإسلامية، وقد جاءت هذه الأخلاق المضادة من المنهجية الصوفية التي تقوم على الفردية والعزلة وعدم الاهتمام بالآخرين، وبترك أمرهم لخالقهم، والحرص على النجاة الخاصة دون الالتفات إلى المجتمع.

الظاهرة الثالثة: موسمية ارتباط أهل السُنّة بالجماعات الإسلامية:

برزت في العصر الحديث ظاهرة تجمّع مسلمي أهل السُنّة الواسع حول إحدى الجماعات المسلمة ثم الانفضاض عنها، وقد ظهر ذلك في الخمسينات حيث التفّت جماهير واسعة في مصر حول حركة الإخوان بعد اشتراكها في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وفي مقاتلة الإنجليز في قناة السويس عام ١٩٥٠، لكن سرعان ما انفضت هذه الجماهير عنها بعد اصطدامها مع عبدالناصر عام ١٩٥٤، مما دعا سيّد قطب –رحمه الله– إلى التساؤل عن الناس الذين تخلّوا عن العصبة المؤمنة، وتركوها لطاغية يبطش بها وهم يتفرّجون: "هل هؤلاء مسلمون حقاً؟" كما دعت قيادياً آخر في قيادة الإخوان المسلمين ليعبّر عن ألمه وتعليله لانفضاض الناس عن الحركة بقوله: "إنّ الناس الذين دخلوا إلى الجماعة من باب تحيا مصر، خرجوا من باب تحيا مصر" [(١)] ، ولم تقف تلك الظاهرة عند مصر بل تعدّتها إلى أقطار أخرى ومنها سورية، فعندما قادت الطليعة والأحزاب الإسلامية الثورة في مواجهة النظام البعثي في عام ١٩٧٩، وتجاوبت

---

(١) تحيا مصر: هو الشعار الذي كانت تردّده الجماهير والأحزاب في مصر بعد بروز الوطنية المصرية في النصف الأول من القرن العشرين.

الجماعات الإسلامية الأخرى معها كالإخوان المسلمين وغيرهم، التفّت جماهير أهل السُنّة حول المقاتلين المسلمين، لكنهم سرعان ما عادوا وتخلّوا عنهم، حتى أنّ الأخبار نقلت أنّ بعض المسلمين هدّد الإسلاميين في بعض المدن بأنهم إن لم يخرجوا من حيّهم فإنهم سيضطرون إلى إبلاغ السلطات الرسمية عنهم.

وتكرّرت تلك الظاهرة في تونس أيضاً حيث برزت حركة النهضة واستقطبت الجماهير في حركة احتجاجية واسعة على ارتفاع أسعار الخبز وتدنّي المستوى المعاشي، مما هيّأ الأجواء إلى سقوط حكم بورقيبة، ومجيء زين العابدين بن علي إلى الحكم عام ١٩٨٧.

لكنّ الناس عادت فانفضّت عن الحركة بعد اضطهاد زين العابدين بن علي لها، وتلفيق الاتهامات الباطلة في حقّها، واتباع أفظع الأساليب الوحشية في قمعها.

ونجد أنّ الظاهرة ذاتها تتكرّر في الجزائر حيث تشكّلت جبهة الإنقاذ في العام ١٩٨٨، ثم التفّت الجماهير حولها فخاضت الانتخابات البلدية وكسحت الموقف ففازت بمعظم البلديات، ثم خاضت الانتخابات النيابية عام ١٩٩١ ففازت بمعظم مقاعد المجلس النيابي، مما جعل سلطة

الجيش تلغي الانتخابات وتدفع بالشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية إلى الاستقالة، وتباشر اضطهاد الجبهة وأعضائها، فتعتقل قيادتها، وتلاحق عناصرها، وتزجّ بهم في المعتقلات الصحراوية، وتبدأ مرحلة من الصراع الدموي ردّاً على عنف السلطات؛ والملاحظ أنّ الباقين مع الجبهة لا مجال لمقارنتهم مع العناصر التي انفضت عنها مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ استقرار مواقف الجماهير لم يأخذ مداه بسبب حادثة التصادم بين الجبهة والسلطة إثر إلغاء الانتخابات النيابية في مطلع عام ١٩٩٢.

والآن: لماذا حدث اجتماع الجماهير حول الجماعات الإسلامية في مصر وسورية وتونس والجزائر ثم الانفضاض من حولها؟

حدث اجتماع الجماهير حول الحركات الإسلامية نتيجة أمور سياسية حيناً واقتصادية حيناً آخر، ففي مصر التفّت الجماهير حول حركة الإخوان عندما تداخلت مواقفها مع الوطنيين في استهداف تحرير فلسطين من قبضة اليهود وتحرير مصر من نير الاستعمار البريطاني.

وفي سورية التفّ أهل السُنّة حول الطليعة عندما أحسّوا بأنّ البساط سحب من تحت أرجلهم من قِبَل الطائفة العلويّة.

وفي تونس تفاعلت الجماهير مع الحركة الإسلامية عندما أحسّت بالجوع.

وفي الجزائر التفّت الجماهير حول الجبهة الإسلامية عندما أحسّت بالضنك والضيق في كل شيء ومن كل شيء، هذه أسباب التفاف الجماهير حول الحركات الإسلامية، فلماذا انفضّت بعد ذلك؟ لأنها لم تع شرعية الارتباط بهذه الجماعات، وضرورته الدينية، ووجوبه الإسلامي.

والآن على ضوء الظواهر السابقة نسأل:

ما الحكم الشرعي الذي يصدره الإسلام نحو الجماعة والاجتماع والتجمّع؟ ماذا قال القرآن الكريم؟ وماذا قال الرسول ﷺ ؟ وما الذي فعله الرسول ﷺ في هذا المجال؟

هل الانتماء إلى جماعة مسلمة واجب في الوقت الحاضر؟ أم مندوب؟ أم مكروه؟ أم حرام؟ أم مباح فقط؟

ومن هي هذه الجماعة التي يمكن أن ينتسب المسلم لها؟ وما هي مواصفاتها؟ وما الصورة التي يمكن أن يتحقّق فيها الانتساب الشرعي لهذه الجماعة أو تلك؟

قبل أن نجيب على هذه الأسئلة بالنسبة لوقتنا الحاضر، نريد أن نرى ماذا قال القرآن الكريم عن الجماعة؟ وما الذي تحدّث به الرسول ﷺ في نحوها؟ وما الذي فعله الرسول ﷺ في سبيل إيجادها؟

الفصل الثاني

حُكم الانتماء إلى الجماعة في الإسلام



نحن من أجل أن نتعرّف على حكم الإسلام بخصوص الانتماء إلى الجماعة سنستعرض آيات القرآن الكريم التي تناولت موضوع الجماعة وحكمه، ثم سنستعرض الأحاديث الشريفة التي تناولت الموضوع ذاته، ثم سنستعرض أفعال الرسول ﷺ نحو الجماعة في مكّة والمدينة.

أولاً :

القرآن الكريم

لقد أوجب القرآن الكريم على المسلم الانتماء إلى الجماعة والتزامه بها، وتوضّح ذلك الآيات التالية:

١ – قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ (العصر).

يقسم الله تعالى في السورة السابقة أنّ ابن آدم في خسارة مستمرّة، ويستثني من ذلك فئة واحدة هي فئة المؤمنين الذين عملوا الصالحات والذين اتصفوا بصفتين هما: التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وإنّ الملفت للنظر في السورة السابقة أنّ القرآن الكريم لم يستثن المؤمن وحده بل استثنى المؤمنين، مما يدل على أنّ النجاة من الخسارة لا تتحقّق بالإيمان

والعمل الصالح فقط، بل تتحقّق بشيء آخر مع الإيمان والعمل الصالح هو أن يكون المسلم مع إخوانه المؤمنين، ومما يؤكّد هذا المعنى أنّ الصفتين التي وصف بهما القرآن الكريم المؤمنين هما التواصي بالحق والتواصي بالصبر لا يمكن أن تتحقّقا إلا في جماعة، من أجل أن يوجد موصٍ بالحق والصبر، وموصىً يستمع إلى الوصية، وهذا دليل على شرعية وجود الجماعة ووجوبها.

٢- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾(الأنعام)،وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الكهف).

وقد أوردت كتب الحديث رواية عن سبب نزول آية سورة الأنعام فقالت: "حدثنا أبو بكر بن شيبة حدثنا محمد بن عبدالله الأسدي عن

اسرائيل عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد بن أبي وقّاص ﵁ قال: كنّا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه فأزل الله عز وجل "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" [١] .

وقد أورد القرطبي تفسيراً لآيتي سورة الأنعام فقال: "وقد أخرج هذا المعنى مبيّناً مكمّلاً ابن ماجة في سننه عن خباب ﵁ في قوله عز وجل: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي" إلى قوله "فتكون من الظالمين" قال: جاء الأقرع ابن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا رسول الله ﷺ مع صُهيب وبلال عمّار وخبّاب، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلمّا رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به وقالوا: إنّا نريد أن نجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإنّ وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأَعْبُد،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقّاص ﵁ (١٢٧/٧).

فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بصحيفة ودعا عليّاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يردون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين" ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري فقال: "وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا أليس الله أعلم بالشاكرين" ثم قال: "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة" قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبتيه، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عز وجل: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا" ولا تجالس الأشراف "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا" يعني عيينة والأقرع "واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً" أي هلاكاً قال: أمر عيينة والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا. قال خبّاب: فكنّا نقعد مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا

بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم" [(١)] .

كما ذكر القرطبي تفسير آية سورة الكهف فقال: "قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: جاءت المؤلّفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء وأرواح جبابهم، يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها، جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى: "واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً. واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" حتى بلغ "إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها" يتهدّدهم بالنار. فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخّرة المسجد يذكرون الله قال: "الحمد لله الذي لم يمتني

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج٦، ص٤٣٢ . والحديث رواه ابن ماجة في سننه (٤١٢٧)، وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٣٢٩).

حتى أمرني أن أُصبّر نفسي مع رجال من أُمّتي، معكم المحيا ومعكم الممات" [1] .

لقد وقعت الواقعة السابقة وهي طلب المشركين من الرسول ﷺ أن يطرد بعضاً من أصحابه، فنزلت آيات في مكانين في القرآن الكريم:

إحداها: تأمر الرسول ﷺ ألاّ يطرد المؤمنين وألاّ يستجيب للمشركين في طلبهم إبعاد المؤمنين الفقراء من جماعته.

والثانية: تأمر الرسول ﷺ أن يصبّر نفسه مع أولئك المؤمنين الفقراء، وأن يلتزم بهم، وفي الحالتين، الحكمة واضحة: تدعيم الجماعة سواء بالمحافظة على عناصرها أم بالتزام صفوفها، وهو رد على المشركين الذين أرادوا أن يمزّقوا صف الجماعة عن طريق إغراء الرسول ﷺ بطرد بعض عناصرها.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠، ص٣٩ . والحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، الحادي والسبعون من شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل، رقم (١٠٤٩٤).

إذن فالدرس الذي يستفيده المسلم من الآيات ومن فعل الرسول ﷺ أن يزيد التزامه بالجماعة المسلمة، وأن لا ينأى عنها بحال من الأحوال.

٣- من الملفت للنظر أنه لم يرد في القرآن الكريم نداء للمؤمن بـ (يا أيها الذي آمن) إنما وردت صيغة (يا أيها الذين آمنوا) مما يدل على أنّ الأصل أن يوجد المسلم ضمن جماعة فيُخاطَب من خلالها، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ (البقرة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ (المائدة،١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ ﴾ (الأنفال)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً ﴾ (التحريم،٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩ ﴾ (الأحزاب)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ ﴾ (الحجرات،١٢)

ومما يؤكّد أنّ الأصل في المسلم أن يكون في جماعة هو أنّ صيغة (يا أيها الذين آمنوا) بقيت هي صورة الخطاب، حتى في الأمر بالأعمال الفردية مثل الطعام والشراب والنكاح الذي لا يمكن إلاّ أن يكون فردياً.

٤- قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران،١٠٣).

يذكر الطبري في تفسيره معنى الآية ويبرز معنى حبل الله فيقول: "القول في تأويل قوله "واعتصموا بحبل الله جميعاً" يعني بذلك جل ثناؤه وتعلّقوا بأسباب الله جميعاً يريد بذلك تعالى ذكره، وتمسّكوا بدين الله الذي أمركم به وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله، وقد دلّلنا فيما مضى قبل على معنى الاعتصام، وأمّا الحبل فإنه السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة، ولذلك سمّي الأمان لأنه سبب يوصل به إلى زوال الخوف والنجاة من الجزع والذعر ومنه قول أعشى بني ثعلبة:

وإذا تجوزهـــا حبـــال قبيلـــة

أخـذت مـن الأخـرى إليـك حبالهـا

ومنه قوله عز وجل: "إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس" [١] . ثم ينقل الطبري تفسير عبدالله بن مسعود رضي الله عنه "حبل الله" بأنه: الجماعة، فيقول: حدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا هيثم قال أخبرنا العوام عن الشعبي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في قوله "واعتصموا بحبل الله جميعاً" قال: الجماعة. حدثنا هشيم عن العوام عن الشعبي عن عبدالله في قوله "واعتصموا بحبل الله جميعاً" قال: حبل الله الجماعة" [٢] .

ثم يذكر الطبري تفسير قوله تعالى "ولا تفرّقوا" فيبيّن تفسير ذلك فيقول: "القول في تأويل قوله عز وجل "ولا تفرّقوا" يعني جل ثناؤه بقوله ولا تفرّقوا ولا تتفرّقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والانتهاء إلى أمره".

ثم ينقل الطبري تفسير قتادة لقوله تعالى: "ولا تفرّقوا" فيقول: حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة "ولا تفرّقوا واذكروا

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٢١ .

(٢) الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٢١ .

نعمة الله عليكم" إنّ الله عز وجل قد كره لكم الفُرقة وقدم إليكم فيها وحذّركموها ونهاكم عنها ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة فارضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن استطعتم ولا قوّة إلاّ بالله. حدثني المثنى قال حدثنا عبدالله بن صالح قال حدثني معاوية بن صالح أنّ الأوزاعي حدثه أنّ يزيد الرقاشي حدثه أنه سمع أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "إنّ بني اسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإنّ أُمّتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار إلاّ واحدة. قال: فقيل: يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده وقال: الجماعة "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا".

حدثنا أبو كريب قال حدثنا المحاربي عن ابن أبي خالد عن الشعبي عن ثابت بن قطنة المري عن عبدالله أنه قال: يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به، وإنّ ما تكرهون في الجماعة والطاعة هو خير مما تستحبون في الفُرقة".

حدثنا عبدالحميد بن بيان اليشكري قال أخبرنا محمد بن يزيد عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن ثابت بن قطنة قال سمعت ابن مسعود وهو يخطب وهو يقول: يا أيها الناس ثم ذكر نحوه.

حـدثنا اسماعيـل بـن حفـص الآملـي قـال حـدثنا عبـدالله بـن نمـير أبو هشام قال حدثنا مجالد بن سعيد عن عامر عن ثابت بن قطنة المري قال: قال عبدالله: عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به ثم ذكر نحوه" (١) .

ثم ينقـل القـرطبي تفسـير الآيـة السـابقة عـن عـدد مـن الصـحابة والتابعين ثم يقول: "وكلها ليس مراداً في الآية إلاّ الذي بمعنى العهد؛ عن ابـن عبـاس. وقـال ابـن مسعود: حبـل الله القـرآن. ورواه علـي وأبـو سـعيد الخدري عن النبي ﷺ، وعن مجاهد وعن قتادة مثل ذلك. وأبو معاوية عن الهجري عن أبي الأحوص عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: "إنّ هذا

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٢٢ .

وحديث افتراق الأُمّة المذكور روى ابن ماجة نحوه (٣٩٩٣) بإسناده عن هشام بن عمار ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي ثنا قتادة عن أنس بن مالك قال: ثم ذكره إلى قوله ﷺ: كلهم في النار إلاّ واحدة هي الجماعة". وقد أورد الشيخ ناصر الدين الألباني الحديث في صحيح ابن ماجة (٣٢٢٧)، وقد ذكر في تخريجه للحديث في السنة لابن أبي عاصم (٣٣/١): "والحديث صحيح قطعاً لأنّ لـه ست طرق أخرى عن أنس وشواهد عن جمع من الصحابة".

القرآن هو حبل الله". وروى تقي بن مخلد حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب عن الشعبي عن عبدالله بن مسعود: "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا" قال: الجماعة؛ وروى عنه وعن غيره من وجوه، والمعنى كله متقارب متداخل، فإنّ الله يأمر بالألفة وينهى عن الفُرقة، فإنّ الفُرقة هلكة والجماعة نجاة، ورحم الله ابن المبارك حيث قال:

إنّ الجماعة حبل الله فاعتصموا

منه بعروته الوثقى لمن دانا"[1].

٥- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (آل عمران).

نقل الطبري تفسير الآية السابقة عن ابن عباس رضي الله عنه فقال: "حدثني المثنى قال حدثنا عبدالله بن صالح قال حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله "ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا" ونحو هذا القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة فنهاهم عن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤ ص١٥٩ .

الاختلاف والفُرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله" [(١)] .

٦- قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الشورى).

وقد نقل الطبري تفسير السدي وقتادة لقوله تعالى: "أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه" نقل فقال: "حدثنا محمد قال حدثنا أحمد قال حدثنا أسباط عن السدي في قوله "أن أقيموا الدين" قال: اعملوا به، وقوله "ولا تتفرّقوا فيه" يقول ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتم بالقيام به كما اختلف الأحزاب من قبلكم، كما حدثنا بشر قال حدثنا سعيد عن قتادة قوله "ولا تتفرّقوا فيه" تعرفوا أنّ الفُرقة هلكة وأنّ الجماعة ثقة" [(٢)].

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٤ ص٢٦ .

(٢) الطبري، جامع البيان، ج٢٥ ص١٠ .

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره معنى الآية السابقة فقال: ""أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه" أي وصّى الله عز وجل جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف" [١] .

الخلاصة:

إنّ الآيات السابقة التي أوردناها تبيّن أنّ الجماعة واجب على المسلم، وقد فسّر بعض الصحابة بعض الآيات بذلك وكان على رأسهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

---

[١] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤ ص١٠٩ .

ثانياً :

السُنَّة

أوضح الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة وجوب التزام المسلم بالجماعة، وبيّن بركات ذلك، كما أوضح إثم من يفارقها، كما أوجب قتله، ونحن سنتناول كل معنى من المعاني السابقة:

أ - وجوب الجماعة:

بيّنت الأحاديث المتعدّدة وجوب الجماعة بشكل صريح، كما بيّنت فرضيّتها بشكل واضح وإليك بعضاً منها:

١- عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "نَضَّرَ الله امرأ سمع مقالتي فبلّغها، فربّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه" زاد فيه علي بن محمد [١] : "ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم:

---

[١] هو أحد الرواة عن محمد بن الفضل.

إخلاص العمل لله، والنُّصح لأئمّة المسلمين، ولزوم جماعتهم" [(١)] .

٢- عن الحارث الأشعري ﷺ قال: قال رسول ﷺ: "إن الله أمرني بالجماعة ، وإنه من خرج من الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه" [(٢)] .

٣- عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: "اثنان خير من واحد، وثلاث خير من اثنين، وأربع خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة فإنّ الله لن يجمع أمّتي إلاّ على هدى" [(٣)] .

٤- عن ابن عمر ﷺ قال: خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية فقال: "يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: "أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يَحْلِف الرجل ولا يُسْتَحْلَف، ويشهد ولا يُستشهد. ألا لا يَخْلُوَنّ رجل بامرأة إلاّ

---

(١) صحيح سُنن ابن ماجة، الشيخ ناصر الدين الألباني، حديث (١٨٧)، باب من بلّغ علماً.

(٢) رواه الالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/١٦١).

(٣) رواه أحمد، مسند الأنصار، حديث أبي ذرالغفاري ﷺ (٤٣/٢٩٧).

كان ثالثهما الشيطان. عليكم بالجماعة، وإيّاكم والفُرقة فإنّ الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنّة فليلزم الجماعة. من سرّته حسنته وساءته سيّئته فذلكم المؤمن" [(١)] .

٥- عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ الله أمر يحيي بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إنّ الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإمّا أن تأمرهم وإمّا أن آمرهم، فقال يحيي: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أُعذّب.

فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وتعدوا على الشُّرَف فقال: إنّ الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن:

أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإنّ مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِق فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدّي إلى غير سيّده. فأيّكم

---

(١) صحيح سنن الترمذي، الشيخ ناصر الدين الألباني، باب لزوم الجماعة، حديث رقم (١٧٥٨).

يرضى أن يكون عبده كذلك؟

.وإنّ الله أمركم بالصلاة، فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا فإنّ الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وآمركم بالصيام، فإنّ مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرّة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإنّ ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، فإنّ مثل ذلك كمثل رجل أَسَرَه العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدّموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير. ففدى نفسه منهم.

وآمركم أن تذكروا الله، فإنّ مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

قال النبي ﷺ: وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن:

السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة

قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم. فقال رجل: يا رسول الله وإن صلّى وصام؟ قال: وإن صلّى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله" [1].

ب - بركات الجماعة:

بيّن الرسول ﷺ في أحاديثه بعض الفوائد التي تنجم عن الجماعة، وخيرية الاجتماع والتجمّع، وأضرار الانفراد والفردية، وضّح ذلك فقال:

١- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يد الله مع الجماعة"[2].

٢- عن ابن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنّ الله لا يجمع أُمّتي -أو قال: أُمّة محمد- على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذّ شذّ

---

(١) صحيح سنن الترمذي، الشيخ ناصر الدين الألباني، حديث رقم (٢٢٩٨)، باب ما جاء مثل الصلاة والصيام والزكاة.

(٢) صحيح سنن الترمذ ي، الشيخ ناصر الدين الألباني، حديث رقم (١٧٥٩)، باب في لزوم الجماعة.

إلى النار" [(١)] .

٣- عن أسامة بن شريك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: "يد الله على الجماعة" [(٢)] .

٤- عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّ أُمّتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم"[(٣)].

٥- عن كعب بن عاصم ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّ الله أجار لي على أُمّتي من ثلاث: لا يجوعوا، ولا يجتمعوا على ضلالة، ولا

---

(١) صحيح سنن الترمذي، الشيخ ناصر الدين الألباني، حديث رقم (١٧٥٩)، باب في لزوم الجماعة.

(٢) رواه ابن أبي عاصم في السنة، وقال الشيخ الألباني: "حديث صحيح وإسناده ضعيف جداً" ثم أردف قائلاً: "لكنّ الحديث صحيح له شواهد" انظر تخريج السنة حديث رقم ٨١ (١/٤٠).

(٣) ضعيف سنن ابن ماجة، الشيخ ناصر الدين الألباني، قال: "ضعيف جداً دون الجملة الأولى فهي صحيحة، حديث رقم (٨٥٦) باب السواد الأعظم.

يستباح بيضة المسلمين" [1] .

٦– عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الجماعة رحمة، والفُرقة عذاب" [2] .

ج - إثم من خرج من الجماعة:

بيّن الرسول ﷺ في بعض الأحاديث وِزْر من يفارق الجماعة، وأنه إن مات على ذلك فميتته جاهلية، بيّن ذلك فقال:

١– عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "مَن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه" [3] .

---

(١) قال الشيخ ناصر الدين الألباني إسناده حسن عند تحقيقه كتاب "السنة" لابن أبي عاصم، حديث رقم ٩٢ (١/٤٤).

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني إسناده حسن عند تحقيقه كتاب "السنة" لابن أبي عاصم، حديث رقم ٩٣ (١/٤٤).

(٣) قال الشيخ ناصر الدين الألباني عنه: صحيح في تخريجه كتاب "السنة" لابن أبي عاصم، حديث رقم (٨٩٢).

٢- عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " مَن خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حُجّة له، ومَن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية" [(١)] .

٣- عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "مَن كره مِن أميره شيئاً فليصبر، فإنه مَن خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية" [(٢)] .

وفي رواية أخرى: "مَن رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه مَن فارق الجماعة شبراً فمات إلاّ مات ميتة جاهلية" [(٣)].

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: "مَن خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (٢٢/٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ "سترون بعدي أموراً تنكرونها" (٥٩/٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ "سترون بعدي أموراً تنكرونها" (٥٩/٩).

يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقُتِل فقِتْلَة جاهلية، ومن خرج على أُمّتي يضرب بَرَّها وفاجرها ولا يتحاشى مِن مُؤمِنِها ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه" [١] .

د - قتل من يفرّق الجماعة:

دعا الرسول ﷺ في عدّة أحاديث إلى قتل من يفارق الجماعة المجتمعة، وإنّ حُكم القتل يبيّن أهمّية الجماعة في نظر الشرع، وإلاّ لَما أوقع ذلك الحُكم في القائم بفعل التفريق، وهذه بعض الأحاديث التي توضّح الحُكم:

١- عن عرفجة بن شريح الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأُمّة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً مَن كان" وفي رواية "فاقتلوه" وفي رواية "مَن أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشقّ عصاكم أو يفرّق

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (٦/٢١).

جماعتكم فاقتلوه" [١] . وفي رواية أخرى: عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أيّما رجل خرج يفرّق بين أُمّتي فاضربوا عنقه" [٢] .

٢- عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة" [٣] .



هذه أقوال الرسول ﷺ وأحاديثه التي تبيّن وجوب الجماعة، وتوضّح فوائدها وبركاتها، وتبيّن حكم من يخرج عليها، ويسعى إلى تفريقها، والآن: ما هي أفعال الرسول ﷺ نحو قضية الجماعة منذ نزول الوحي عليه؟ وكيف تصرّف نحوها؟

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرّق المسلمين وهو مجتمع (٢٢/٦).

(٢) سنن النسائي، صححه الشيخ ناصر الدين الألباني، حديث رقم (٣٧٥٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى "أن النفس بالنفس والعين بالعين ..." (٦/٩).

ثالثاً:



يتضح من دراسة سيرة الرسول ﷺ أنه اتجه منذ اللحظة التي نزل عليه الوحي بكلمة: "اقرأ"، اتجه إلى تشكيل جماعة مسلمة، لأنها تجسّد حقيقة الإسلام بشكل بشري، وكان المسلم الذي يؤمن بالإسلام يصبح عضواً تلقائياً في هذه الجماعة يعيش في رحمها وفي كنفها، وله حقوق فيها وعليه واجبات نحوها.

ويتضح أيضاً من سيرته ﷺ أنه كان حريصاً على المحافظة على هذه الجماعة، وعلى تمتين بنائها التنظيمي، ويتضح من دراسة سيرته ﷺ أنّ هذا الحرص على الجماعة لم ينقص في المدينة بل ازداد تدعيمه لها ولكن بصورة مختلفة وبتشريعات مناسبة، ونحن سندرس أفعال الرسول ﷺ ومواقفه وتصرّفاته نحو الجماعة في مكّة أوّلاً وفي المدينة ثانياً.

أ - الجماعة المسلمة في مكّة

١- الجماعة المسلمة مقابل القبيلة:

عرف العرب قبل الإسلام القبيلة نموذجاً وحيداً للتجمّع، كما عرفوا العصبية القبلية محوراً للانتماء، وقد صوّر الشاعر الجاهلي هذه العصبية الطاغية فقال:

وهل أنا إلاّ من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

لذلك كانت الجماعة المسلمة بقيادة محمد ﷺ جماعة فريدة في البيئة الجاهلية، لأنها أوجدت نموذجاً جديداً للمجتمع لا يعتمد القبلية ولا الولاء القبلي، بل يقوم على اللقاء في الله وعلى الأُخوّة الإسلامية، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠ ﴾ (الحجرات).

لذلك احتوت الجماعة المسلمة الأولى في داخلها أفراداً من قبائل وأفخاذ وعشائر مختلفة: من قريش وتميم وبني هاشم وبني أُميّة وبني مخزوم إلخ...، كما ضمّت إليها أفراداً من جنسيّات مختلفة، فهناك بلال الحبشي

وصُهَيْب الرومي وسلمان الفارسي إلخ...

إنّ هذه الجماعة التي كوّنها الرسول ﷺ هي التي كانت تُخيف القيادة المشركة، فأَمْر محمد ﷺ ليس أمر مُصلح لم يعجبه جانب من جوانب الحياة الدينية أو الاقتصادية أو السياسية في مكّة، ولو كان الوضع هكذا لتم الردّ عليه وتفنيد وجهات نظره، وليس أمر محمد ﷺ أمر قبيلة أو عشيرة تتطلّع إلى مرعى تحتكره أو ماء تستحوذ عليه فيمكن مقاتلتها أو التنازل لها عنه، لكنه أمر جماعة جديدة في أهدافها التي تسعى إليها، وفي اللقاءِ الذي تتضامن وتلتقي عليه، وفي نوعية الأشخاص المجتمعين من ناحية أصولهم وقبائلهم.

٢- بعض صور ارتباط الصحابي بالجماعة المسلمة:

كان الرسول ﷺ يربط المسلم بالجماعة المسلمة عندما يعلن إسلامه وانتقاله من الكفر إلى الإيمان، يتحرّك مع هذه الجماعة، يشاركها في كل مظاهر وجودها من تلقّي العلم، وتبليغ المشركين كلام الله ونشر الدعوة، ومقارعة الباطل، والردّ على الافتراءات، وتحمّل الإيذاء، والإسرار إن كانت هناك سرية، والجهر إن كانت الدعوة في المرحلة الجهرية.

إذن لم تكن علاقة المسلم بالرسول ﷺ علاقة فردية يأخذ منه الإسلام وينطلق على سجيّته دون أيّ التزام، بل كان يصبح عضواً ملتزماً في جماعة ذات جسم واحد، ونحن سندرس مظهرين من مظاهر الحياة الجماعية التي كانت يحياها الفرد في تلك الجماعة الوليدة:

الأول: التعليم:

كان الصحابي يتلقّى العلم في بداية التقائه بالرسول ﷺ، وكانت دار الأرقم هي المحضن الأول للصحابة، وكان القرآن الكريم محور تدارسهم، ثم أصبح الصحابة الذين تعلّموا من الرسول ﷺ ودرسوا القرآن الكريم وفهموا تعاليم الإسلام رسله إلى أماكن أخرى، فكان مُصْعَب بن عُمَيْر رضي الله عنه هو معلّم الإسلام لأهل المدينة في وقت من الأوقات.

الثاني: نشر الدعوة:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك

كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك ما جمعتنا إلاّ لهذا؟ ثم قام، فنزلت (تبّت يدا أبي لهب وتبّ...) "[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُنزل عليه "وأنذر عشيرتك الأقربين" فقال: "يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدالمطّلب لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا صَفِيّة عمّة رسول الله لا أُغني عنكِ من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً" [٢] .

وقد ساهم الصحابة جميعهم في نشر الدعوة، فقد نقلت كتب السيرة أنّ الصحابة اجتمعوا مرّة وقالوا: ما سمعت قريش بهذا القرآن يجهر لها به قط فمن رجل يسمعهموه ..؟ فقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أنا،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى "تبت يدا أبي لهب وتب" (٦/٢٢١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى "وأنذر عشيرتك الأقربين" (١/١٣٤).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله تعالى "وأنذر عشيرتك الأقربين" (٨/٤٠٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى "وأنذر عشيرتك الأقربين" (١/١٣٣) من طريقين عن أبي هريرة.

فقالوا: نخشاهم عليك إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوا، فقال: دعوني فإنّ الله سيمنعني، وانطلق إلى الكعبة وقرأ بصوت عالٍ: "الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان" فتأمّل القريشيّون فيه وجعلوا يتساءلون: ما يقول ابن أم عبد؟ أجاب بعضهم: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، وجعلوا يضربونه في وجهه وهو ماضٍ في تلاوة السورة حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابة وآثار النطحات على وجهه، فقالوا: هذا الذي خفنا عليك، قال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، لئن شئتم لأعاودنهم غداً بمثلها، قالوا: لا حسبك، أسمعتهم" [(١)] .

٣- من الوسائل التي أخذ بها الرسول ﷺ للمحافظة على الجماعة المسلمة:

السرّية والهجرة:

عندما بدأ الرسول ﷺ دعوته في مكّة، دعا إلى التوحيد ونَبْذ الشرك والأوثان والأصنام، والتفّ حوله بعض المؤمنين، فأبقى صلتهم به

(١) سيرة ابن هشام، ج١ ص٣١٤ .

سرّية، من أجل المحافظة عليهم، وإبعاد الأذى عنهم، وقد استمرّت هذه السرّية لمدّة ثلاث سنوات، ولم يكن من سبب في تقديري يدعو الرسول ﷺ إلى هذه السرّية سوى حرصه على هذه الجماعة من أن تتعرّض إلى التدمير -قبل أن يقوى عودها- من قِبَل الأعداء الكافرين المتربّصين بها، ثم بعد أن جهر الرسول ﷺ بالدعوة وظهر الأتباع حوله يقولون بقوله، ويدعون إلى دينه، ويقرّون بأنّ الله واحد أحد، وبأنّ محمداً رسول الله، انصبّ الأذى عليهم انصباباً، فشرع الإسلام الهجرة، ووجّه الرسول ﷺ صحابته إلى الحبشة لأنّ ملكها عادل، وكانت هجرتا الحبشة الأولى والثانية.

وكان الفوج الأول من الهجرة الأولى مكوّناً من بضع أُسَر فيهم رُقَيّة ابنة رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفّان رضي الله عنه، ونفر آخر لم يزيدوا على ستة عشر، فاتجهوا نحو البحر، ثم ركبوا سفينتين تجاريتين، ولم تستطع قريش اللحاق بهم، ووصلت لهم أخبار غير دقيقة بأنّ المسلمين هادنوا المشركين مما جعلهم يرجعون إلى مكّة، فوجدوا أنّ المشركين مازالوا على عدائهم السابق للإسلام، فلحق بهم أذىً كبيراً بعد أن استجار بعضهم بمن يعرف من كبراء قريش.

إنّ هذا الإيذاء الشديد الواقع بالمسلمين جعل الرسول ﷺ يفكّر في توجيه المسلمين مرّة ثانية إلى الحبشة، فكانت الهجرة الثانية، وبلغ الفوج المهاجر ثلاثة وثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة، ووصلوا إلى الحبشة، ووجدوا عند النجاشي الأمان والإكرام.

٤- من الوسائل التي أخذ بها الرسول ﷺ لتنظيم الجماعة:

البيعة:

لقد كان الرسول ﷺ يأخذ البيعة بين وقت وآخر من صحابته في مواقف مختلفة، وكانت البيعة صورة من صور العهد بين القيادة والقاعدة من أجل تمتين الصلة بينهما حسب المستجدّات التي تمرّ بها الدعوة الإسلامية، ومن أجل زيادة فاعلية الجماعة وتحسين أدائها والارتفاع بها إلى مستوى المواجهات المحيطة بها، ومن هذه البيعات:

بيعة العقبة الأولى:

وقد بايع فيها الرسول ﷺ الأنصار على جملة أمور ذكرها عبادة ابن الصامت رضي الله عنه فقال: "بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه

بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف. قال ﷺ: فإن وفّيتم فلكم الجنّة، وإن غشيتم من ذلك فأخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفّارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذّب وإن شاء غفر"[1].

بيعة العقبة الثانية:

وقد روى جابر بن عبدالله رضي الله عنه قصة تلك البيعة فقال: "فرحل إليه -أي رسول الله ﷺ- منّا سبعون رجلاً حتى قدم في الموسم فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين حتى توافَينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: "تبايعوني على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنّة". فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة -وهو من أصغر السبعين بعدي- فقال: رُوَيداً أهل يثرب فإنّا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلاّ ونحن نعلم أنه رسول الله، وإنّ إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١/٥٤-٥٨)، ومسلم (٥/١٣٧).

السيوف، فإمّا أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإمّا أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبيّنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله". فقالوا: يا (أسعد) أمط عنّا بيدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، فقمنا إليه رجلاً رجلاً فبايعناه" [١] .

ونقلت كتب السيرة رواية أخرى عن بيعة العقبة نقلها كعب بن مالك رضي الله عنه فقال: "نمنا تلك الليلة -ليلة العقبة- مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلّل تسلّل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نُسَيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو بن عُدي.

فلمّا اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ جاءنا ومعه العبّاس بن عبدالمطّلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلاّ أنه أحب أن يحضر أمر

---

[١] صححه الألباني في تحقيقه أحاديث فقه السيرة للغزالي فنقل أنّ ابن كثير قال في "البداية" (ج٣ ص١٦٠): هذا إسناد جيد على شرط مسلم. وقال الحافظ في الفتح: رواه أحمد بإسناد حسن، وصحّحه الحاكم وابن حبّان.

ابن أخيه ويستوثق له، فلمّا جلس كان أول متكلّم قال: يا معشر الخزرج إنّ محمداً منّا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزمة من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلاّ الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عزّة ومنعة من قومه وبلده...

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت؛ فتكلّم يا رسول الله؛ فخذ لنفسك وربك ما أحببت. فتكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، ثم قال: "أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم". قال كعب: فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: نعم، فوالذي بعثك بالحق لنمنعنّك ممّا نمنع أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، ورثناها كابراً عن كابر. فاعترض هذا القول -والبراء يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم- أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إنّ بيننا وبين الرجال -يعني اليهود- حبالاً، وإنّا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من

حاربتم وأسا لم من سالمتم... وأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم النقباء تسعة من (الخزرج) وثلاثة من (الأوس)، فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفلة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي" [(١)].

بيعة الرضوان تحت الشجرة:

فقد جاء فيها عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه وغيره أنهم قالوا: "بايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نفرّ" وفي بعض الروايات "على الموت".

والفرار من الزحف كان معروفاً عند الصحابة أنه كبيرة من الكبائر،

---

(١) قال الألباني عنه في تحقيقه فقه السيرة: حديث صحيح رواه ابن أبي إسحاق في المغازي (١/٢٧٣-٢٧٦) عن ابن هشام وأحمد (٣/٤٦٠-٤٦٣). وأبي جرير في تاريخه من طريق ابن إسحاق، قال: حدثني معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب أنّ أخاه عبد الله بن كعب -وكان من أعلم الأنصار- حدثه أنّ أباه كما حدثه، وهذا سند صحيح وصححه ابن حبّان في الفتح (٥/٤٧٥) قلت: وأمّا قوله في آخر القصة "فقال لهم الرسول ﷺ: أنتم..." فأخرجه ابن إسحاق (١/٢٧٧) عن عبد الله بن أبي بكر مرسلاً فهو ضعيف، ورواه ابن جرير (٢/٩٣) عن طريق ابن إسحاق.

فقد حذّر الله عز وجل منه في سورة الأنفال التي نزلت عقب غزوة بدر في السنة الثانية، بينما كانت الحُدَيْبية في السنة السادسة، فالمبايعة على ذلك إنما هي من باب التأكيد عليه.

البيعة على الهجرة:

روى الإمام أحمد في مسنده عن الحارث بن زياد الساعدي الأنصاري ﵁ أنه أتى النبي ﷺ يوم الخندق وهو يبايع الناس على الهجرة...

البيعة على عدم المسألة:

بايع الرسول ﷺ بعضاً من صحابته على عدم سؤال الناس شيئاً، فعن عوف بن مالك الأشجعي ﵁ قال: كنّا عند النبي ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال: "ألا تبايعون رسول الله؟" فبسطنا أيدينا. فقال قائل: يا رسول الله إنّا قد بايعناك، فعلام نبايعك؟ فقال: "أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتقيموا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا (وأسرّ كلمة خفية)، وأن لا تسألوا الناس شيئاً". قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر

يسقط سوطه، فما يسأل أحداً يناوله إيّاه" [1] .

---

(١) صحيح ابن ماجة للشيخ ناصر الدين الألباني (٢٨٦٧). كما جاء نحوه في صحيح أبي داود (١٤٤٩) وصحيح النسائي (٤٤٦) واللفظ لابن ماجة.

ب- الجماعة المسلمة في المدينة

قامت الدولة الإسلامية في المدينة ثمرة ونتيجة جهود الجماعة المسلمة التي قادها محمد ﷺ ورعاها لمدّة ثلاثة عشر عاماً في مكّة وربط بين أفرادها، وحرص على نموّها. فكيف تصرّف الرسول ﷺ نحو هذه الجماعة بعد قيام الدولة؟ هل أنهى دورها؟ هل قلّل من شأنها؟ هل أضعف فاعليّتها؟

الحقيقة لم ينه الرسول ﷺ دور الجماعة ولم يقلّل من شأنها ولم يضعف فاعليّتها، بل رسّخ وجودها ورسم تشريعات تعطيها الاستمرارية حتى أصبح العَلَم الذي يُطلق على الكيان الإسلامي هو (أهل السنّة والجماعة) وأصبح هذا المسمّى يحتوي ضمن ما يحتويه (جماعة المسلمين) من جهة و(الخليفة-الإمام) من جهة ثانية، وأصبح أهل السنة والجماعة هم الذين يعطون الحيوية للكيان الإسلامي إذا حدث فتور أو تراخ، ويسدّون النقص والخلل إذا قصّرت الدولة في واجباتها نحو الرعية أو نحو جانب من جوانب الحياة الإسلامية: العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الجهادية إلخ...

وسنرى ذلك من خلال بعض الشواهد، ولكنّنا سنرى أولاً كيف

رسّخ الرسول ﷺ في المدينة كيان الجماعة؟ وما الخطوات التي خطاها في هذا الاتجاه؟

١- المؤاخاة:

كان المجتمع الإسلامي الوليد في المدينة نتيجة الظروف الدعوية التي مرّ بها المسلمون منقسماً إلى فئتين: الأنصار والمهاجرين، وكان بعض التباين واقعاً بينهما وخاصة في المجال الاقتصادي وفي المجال النفسي، فكان أحدها مستقراً في بلده وهم الأنصار، والآخر طريداً شريداً ترك كل ما يملك في بلده وهم المهاجرون، فدعا الرسول ﷺ إلى المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، واتخذ كل مهاجر أخاً له من الأنصار، وكانت هذه الخطوة علاجاً للهوة الاقتصادية التي تفصل بينهما من جهة، وللجراحات النفسية التي عانى المهاجرون منها من جهة ثانية.

وقد نقلت الروايات أنّ المهاجرين لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما، فقال سعد لعبدالرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلّقها، فإذا انقضت عدّتها فتزوّجها، قال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم؟ فدلّوه على سوق

بني قينقاع. فما انقلب إلاّ ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صُفْرَة [(١)] فقال النبي ﷺ: مَهْيَم؟ [(٢)] قال: تزوّجت. قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب [(٣)] .

وكانت نتيجة المؤاخاة نشوء جماعة واحدة في الواقع الحقيقي، معافاة من أي خلل في توازنها في أي مجال من المجالات حتى تستطيع مواجهة الأعباء القادمة التي ستهبّ عليها من حرب المشركين، وتآمر اليهود والمنافقين، ليس هذا فحسب، بل تحمل أعباء توسيع رقعة انتشار الإسلام خارج المدينة المنوّرة وترسيخه فيها، وهذا ما قام به المجتمع الإسلامي في المدينة خير قيام في الأيام التالية. وكان من ضمن الأحكام التي ارتبطت بالمؤاخاة أن يرث المهاجر الأنصاري وبالعكس، ثم لما استقرّ الوضع، وانسدّت الثغرة، والتأمت الجراح، نَسَخ الإسلام الحكم السابق، وهو أن يرث المهاجر الأنصاري، وأصبح الوارثون هم أهل رحم المسلم

---

(١) زينة.

(٢) سؤال عن ماله.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار (٥/٨٨).

فقط وذوي عصبيته، فقد روى البخاري حديثاً عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (النساء) قال: كان المهاجرون -لما قدموا المدينة- يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأُخوّة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم. فلمّا نزلت "ولكل جعلنا موالي..." نسخت ثم قال: "والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم" من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث، ويوصى له"[1].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النساء، باب قوله تعالى "والذين عقدت أيمانكم" (٦/٥٥-٥٦).

٢- التشريعات التي تحافظ على حيوية الجماعة المسلمة على مدار التاريخ:

الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

اعتبر الإسلام أنّ أُمّة محمد ﷺ خير أُمّة أُخرجت للناس بسبب أمرها بالمعروف ونَهْيِها عن المنكر، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران).

وقد حثّ الرسول ﷺ على إزالة المنكر، وصنّف ذلك في درجات ثلاثة، واعتبر المسلم الذي لا ينكر المنكر في درجته الدنيا خالياً من الإيمان في إحدى الروايات فقال رسول الله ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" [١].

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/٥٠).

وجاء في حديث آخر أنّ الرسول ﷺ قال: "ما مِن نبي بعثه الله في أُمّة قبلي إلاّ كان له من أُمّته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخْلُف من بعدهم خُلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل" [١] .

وقد اعتبر الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً على المسلم وهو فرض كفاية، لكنه يتعيّن في بعض الأحيان، فقد قال النووي في شرح الحديث السابق: "وأمّا قوله ﷺ (فليغيّره) فهو أمر إيجاب على الأُمّة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنّة وإجماع الأُمّة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدين" [٢].

وقال أيضاً عن الحالات التي يكون فيها فرض كفاية والحالات التي يكون فيها فرض عين: "ثم إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/٥٠-٥١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، ج٢ ص٢٢ .

كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكّن منه بلا عذر ولا خوف، ثم إنه قد يتعيّن كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلاّ هو أو لا يتمكّن من إزالته إلاّ هو" [(١)] .

وقد وصف الله تعالى المؤمنين والمؤمنات بولاية بعضهم بعضاً، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (التوبة، ٧١).

كما حذّر القرآن الكريم من أنّ اللعنة قد وقعت على بني إسرائيل بسبب عدم تناهيهم عن المنكر فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (المائدة).

إنّ إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المسلم، واعتباره أخصّ صفات المؤمنين، وتوضيح القرآن أنّ اللعنة التي وقعت على بني

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، ج٢ ص٢٣ .

إسرائيل كانت بسبب عدم قيامهم بذلك الواجب، أعطى الأُمّة حيويّة مستمرّة، حيث كان قيام المسلمين بهذا الواجب يَجْبُرُ نقص الدولة ويسدّ الثغرات التي تعجز عن رَتْقها، ويكمّل ما تغفل عنه، ويصحّح مسار الأُمّة بشكل عام، إذ كان يعتبر التشريع الإسلامي كل مسلم مسؤولاً عن أي منكر مسؤولية شرعية وعليه إصلاحه، ويربّيه على ذلك ويدفعه إلى ذلك، إنّ هذه التربية وهذه المسؤولية الشرعية تعطي الأُمّة حيوية دائمة ليست مرتبطة بحيوية الدولة، فعندما تفقد الدولة بعض حيويّتها يقوم المسلمون بذلك من خلال تنفيذ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثاني: الصدقة:

فرض الإسلام الزكاة على المسلم فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة،١٠٣)، وحدّدت السنّة نِصابها في كل الأموال والمواشي والزروع، كما بيّن القرآن أوجه صرفها فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ (التوبة).

وقد أوجب الإسلام على المسلم أن يعطي هذه الزكاة إلى الإمام، لكنه شرع أيضاً الصدقة إلى جانب الزكاة وأباح له إنفاقها في الوجوه التي يراها وللأشخاص الذين يراهم مستحقّين وفي الوقت الذي يراه مناسباً، فقد حثّت بعض الآيات المسلمين على الإنفاق دون مَنٍّ ولا إيذاء ولا رياء، وأن يكون ذلك في سبيل الله وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى فقال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ (البقرة).

ثم حضّت آيات أخرى المؤمنين على الإنفاق من الكسب الطيّب وحذّرتهم من البخل ومن عدم الإنفاق لأنّ الشيطان يعدهم الفقر فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟

فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ (البقرة).

وقد بيّنت آيات أخرى أجر المنفقين في سبيل الله بأنه كبير ومضاعف فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ (البقرة).

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ (البقرة).

وقد جاءت أحاديث الرسول ﷺ مليئة بالحثّ على الإنفاق فقال الرسول ﷺ: "اتقوا النار ولو بشقّ تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة" [1] .

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة (٣/٨٦).

كما دعت الأحاديث الشريفة إلى إخفائها فقال ﷺ: "سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلاّ ظلّه" وواحد من هؤلاء السبعة: "رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله" [(١)] . وبيّن الأجر الكبير للمتصدّق فقال الرسول ﷺ: "ما تصدّق أحد بصدقة من طيّب، ولا يقبل الله إلاّ الطيّب، إلاّ أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة فترْبو في كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يُرَبّي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله" [(٢)] .

إنّ الآيات والأحاديث السابقة التي وجّهت المسلمين إلى الإنفاق وحثّتهم على الصدقة وبيّنت أجرها الكبير، وفصّلت في صُوَرها، وزيّنت إخفاءها، جعلت الوضع الاقتصادي للكيان الإسلامي يقوم على شعبتين:

الأولى: الزكاة، وهي محدّدة النصاب ووقت الصرف وجهتها.

الثانية: الصدقة، وهي غير محدّدة في نصاب ولا وقت ولا جهة، بل موكلة إلى تقدير المسلم المتصدِّق.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (٣/٩٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من كسب طيب وتربيتها (٣/٨٥).

إنّ هذه الصورة جعلت الشعبة الثانية -وهي الصدقة- كفيلة بزيادة إغناء المسلمين في حال قيام (الإمام-الدولة) بجمع الزكاة وصرفها في الوجوه المستحقّة، وبسد النقص في حياة المسلمين الاقتصادية وجبره في حال أي تقصير في جمعها أو صرفها.

إنّ الزكاة والصدقة تشريعان متكاملان يؤدّيان دوراً متكاملاً في إنماء (جماعة المسلمين)، وفي حل مشاكلهم الاقتصادية من أجل أداء دور حي فاعل لـ (أهل السنّة والجماعة) وهذا ما تحقّق على مدار التاريخ الإسلامي.

الثالث: تمييز الجماعة المسلمة عن غيرها:

من نافلة القول أن نتحدّث عن افتراق الجماعة المسلمة عن الجماعات المعاصرة لها كجماعات اليهود والنصارى والمشركين أو مُباينتها لهم في جميع الكلّيات الأساسية التي يقوم عليها الدين الإسلامي.

فالجماعة المسلمة مُوَحِّدة في حين أنّ الجماعات الأخرى كافرة مشركة، والجماعة المسلمة تلتزم بالوحي في كل أمورها في حين أنّ الجماعات الأخرى حرّفت تعاليم الوحي وأدخلت معها أقوال رهبانها وأحبارها، والجماعة المسلمة تعتقد أنّ الربّ ربّ والعبد عبد ولا حلول

بينهما ولا اتحاد ولا وحدة، في حين أنّ الجماعات الأخرى تعتقد أنّ الله يحل في العبد كما حدث مع النصارى واليهود والمشركين في اعتقادهم بالمسيح وعُزَيْر والملائكة بأنهم أبناء الله وبناته.

الجماعة المسلمة تدعو الله وحده وتعتقد أن لا حاجة إلى توسيط أحد أو شيء، في حين أنّ الجماعات الأخرى تجعل بينها وبين الله وسائط متعدّدة من أرواح وقبور وأشخاص إلخ...، ومع ذلك فإنّ الرسول ﷺ حرص على تمييز الجماعة المسلمة عن الجماعات المشركة في بعض صور عباداتها وعاداتها، وأعيادها وهيئتها، وجنائزها وأذانها.

فبعد أن صام الرسول ﷺ يوم عاشوراء أُخْبِرَ أنه يوم تعظّمه اليهود والنصارى، فأراد أن يميّز الرسول ﷺ جماعة المسلمين عن جماعة اليهود والنصارى والمشركين في أداء هذه الشعيرة. فقد ذكر ابن عبّاس رضي الله عنهما: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظّمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: "فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع. قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول

الله ﷺ "[١] .

وعندما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة وجد أنّ للمشركين عيدَيْن في العام، فحرص على تمييز الجماعة المسلمة، فشرع لها عيدَيْ الفطر والأضحى، وقد ذكر ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما، فلمّا قدم النبي ﷺ المدينة قال: "كان لكم يومان تلعبون فيهما، وقد أبدلكم الله بهما خيراً منهما يوم الفطر ويوم الأضحى"[٢] .

وأمر الرسول ﷺ المسلمين بإطلاق اللِّحى مخالفة للمجوس والمشركين، فقد رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "جُزُّوا الشوارب وأرخوا اللِّحى، خالفوا المجوس"[٣] .

كما نقل ابن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال: "خالفوا

---

[١] صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (١٥١/٣).

[٢] رواه النسائي في سننه، كتاب صلاة العيدين، باب أعياد الجاهلية، وقد أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح النسائي (١٤٦٥).

[٣] رواهما مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خِصال الفِطْرة (١٥٣/١).

المشركين، أَحْفوا الشوارب وأَوْفوا اللِّحى" [١] .

وقد ميّز الرسول ﷺ جماعة المسلمين عن اليهود فأمرهم بالصلاة في خِفافهم، فقد جاء عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خالفوا اليهود فإنهم لا يصلّون في نعالهم ولا خِفافهم" [٢] .

كما قصد الرسول ﷺ قصداً إلى مخالفة اليهود عندما أخبره حَبْر منهم أنهم لا يقعدون حتى توضع الجنازة في اللحد، فقد ورد عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا اتبع الجنازة لم يقعد حتى توضع في اللحد، فعرض له حَبْر فقال: هكذا نصنع يا محمد، فجلس رسول الله ﷺ وقال: "خالفوهم" [٣] .

---

[١] نفس التخريج السابق.

[٢] رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعال، وقد أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (٦٥٩).

[٣] رواه ابن ماجة في سننه، كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في القيام للجنازة. وقد حسنه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن ابن ماجة رقم (١٢٥٦).

كما جاء الإعلان عن الصلاة في الشرع مخالفاً لصورتي الإعلان عنها عند اليهود والنصارى، فجاء عن ابن عمر ﵄ قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحَيَّنون الصلاة ليس يُنادى لها، فتكلّموا يوماً في ذلك فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أَوَلا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ: "يا بلال قُم فناد بالصلاة" (١).

وقد وجّه الرسول ﷺ المسلمين إلى مخالفة الطوائف الأخرى في مجالات متعدّدة منها صبغ الشيب، وقصد إلى تمييزهم عنها، فقد جاء عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنّ اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم" (٢).

كما نقل عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "غيّروا

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري كتاب الأذان، باب بدء الأذان رقم (١٧٥)، صحيح مسلم كتاب الصلاة، باب بدء الأذان رقم (٥٦٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب في مخالفة اليهود في الصبغ (٦/١٥٥).

الشيب ولا تشبّهوا باليهود" [(١)] .

قال إسحاق بن إبراهيم: سمعت أبا عبدالله يقول لأبي: "يا أبا هشام اختضب ولو مرّة واحدة، فأخير لك أن تختضب ولا تشبه باليهود". كما حثّ الرسول ﷺ المسلمين على السحور والتعجيل بالفطر حتى يتمايزوا عن أهل الكتاب في عبادتهم، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحَر" [(٢)] .

وقد صرّح بذلك فيما رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا يزال الدين ظاهراً ما عجّل الناس الفطر، لأنّ اليهود والنصارى يؤخّرون" [(٣)]. كما حثّهم على عدم تأخير صلاة المغرب مخالفة

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب اللباس عن رسول الله، باب ما جاء في الخضاب، وقال: حديث حسن صحيح، وحسنه الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٣٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه (٣/١٣٠).

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصوم ، باب ما يستحب من تعجيل الفطر، وحسنه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (٢٠٣٨).

للنصارى، فقد روى أبو داود من حديث أبي أيوب الأنصاري ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: "لا تزال أُمّتي بخير -أو قال: على الفطرة- ما لم يؤخّروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم" [(١)].

وقد جاء مفسّراً تعليله "لا يزالون بخير ما لم يؤخّروا المغرب إلى طلوع النجوم" :مضاهاة للنصرانية، فقد حثّ الرسول ﷺ على عدم تأخير صلاة المغرب والفجر مخالفة لليهود والنصارى، فقد قال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية حدثنا الصامت بن بهرام عن الحارث ابن وهب عن عبدالرحمن الصنابحي قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزال أمتي بخير في مسكة من دينها ما لم ينتظروا بالمغرب اشتباك النجوم مضاهاة اليهود، وما لم يؤخروا الفجر إلى إمحاق النجوم مضاهاة النصرانية، وما لم يكلوا الجنائز إلى أهلها " [(٢)].

وقد نهى الرسول ﷺ عن المواصلة في الصوم إبعاداً لهم عن مشابهة

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في وقت المغرب، وحسنه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم (٤٤٥).

(٢) كنز العمال، حديث رقم (١٩٤٣٧) ، (٣٨٩/٧).

النصارى فقال سعيد بن منصور حدثنا عُبيد الله بن إياد بن لقيط عن أبيه عن ليلى امرأة بشر بن الخصاصية قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة، فنهاني عنه بشر وقال: إنّ رسول الله ﷺ نهاني عن ذلك وقال: "إنما يفعل ذلك النصارى، صوموا كما أمركم الله (ثم أتمّوا الصيام إلى الليل) فإذا كان الليل فأفطروا" [1] .

وقد دعا الرسول ﷺ المسلمين إلى مخالفة اليهود في معاملتهم للحائض حيث أباح لهم مؤاكلتها ومجامعتها في البيوت، فقد جاء عن حمّاد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه أنّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض) إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: "اصنعوا كل شيء إلاّ النكاح" فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فيه. فجاء أُسَيْد بن حُضَيْر وعبّاد بن بِشْر فقالا: يا رسول الله

---

(١) رواه أحمد في مسنده، مسند الأنصار ، باب بشير بن الخصاصية السدوسي رقم (٢٢٠٠٥)، وعلق عليه الشيخ شُعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في كتاب "جلباب المرأة المسلمة" ص١٧٦ .

إنّ اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هَدِيَّة من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما، فسقاهما. فعرفا أنه لم يجد عليهما [(١)] .

وعن أبي أُمامة عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: "كنت وأنا في الجاهلية أظن أنّ الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جُرَءاء عليه قومه، فتلطّفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبي. فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحّد الله لا يشرك به شيء، قلت له: فمَن معك على هذا؟ قال: حُرّ وعبد، (قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به) فقلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت في

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحيض ، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها (١٦٩/١).

أهلي، فجعلت أتخبّر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليّ نفر من أهل يثرب -من أهل المدينة- فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: نعم، أنت الذي لقيتني بمكّة، قال: فقلت بلى، فقلت: يا نبي الله أخبرني عما علّمك الله وأجهله؟ أخبرني عن الصلاة، قال: صلّ صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار. ثم صلّ، فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أَقْصِر عن الصلاة، فإنّ حينئذ تُسْجَر جهنم، فإذا أقبل الفَيْء فصلّ، فإنّ الصلاة مشهودة محضورة، حتى تصلي العصر. ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار... الحديث" [١].

فقد نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة (٢/٢٠٩).

الغروب، معلّلاً ذلك النهي بأنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان، وأنه حينئذ يسجد لها الكفار.

وقد أبرز ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) أنّ الشرع قصد إلى مخالفة الكافرين وأهل الكتاب والمشركين قصداً؛ فيقول معقّباً على حديث "إنّ اليهود لا يصبغون فخالفوهم": "وهذا، وإن دلّ على أنّ مخالفتهم أمر مقصود للشرع، فذلك لا ينفي أن تكون في نفس الفعل الذي خولفوا فيه مصلحة مقصودة، مع قطع النظر عن مخالفتهم" [١].

إذن تؤكّد الوقائع السابقة جميعها حِرْص الرسول ﷺ على تمييز الجماعة المسلمة عن جماعات المشركين واليهود والنصارى في دقائق الأمور، وفي كل تفصيلاتها، بعد أن كان حاصلاً في كلّيات البناء الشرعي لها.

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها من كل ما سبق أنّ القرآن الكريم أوجب الجماعة، وأنّ أحاديث الرسول ﷺ كانت واضحة تمام الوضوح في إيجابها على المسلم أيضاً، وجاءت أفعاله وتصرّفاته ومواقفه في

---

[١] ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (١/٥٦).

كل من مكّة والمدينة متفقة كل الاتفاق مع أحاديثه وأقواله ﷺ، ومطابقة لما أوجبه القرآن الكريم، لذلك نراه ﷺ أنشأ جماعة منذ اللحظة الأولى التي كانت بدأت فيها دعوته، وكانت هذه الجماعة صورة غريبة عمّا عرفته الجاهلية من صور الاجتماع وأبرزها القبلية، وكانت هذه الجماعة محضناً للصحابي يتعلّم فيها أمور دينه، ويتلقّى من خلالها تعليمات قيادته من نشر للدعوة والهجرة وغيرها من الأمور، كما نلحظ أنّ كثيراً من التصرّفات والأفعال التي وجّه الرسول ﷺ صحابته إليها كان المقصود منها هو المحافظة على الجماعة وأبرزها: الإسرار في بداية الدعوة الإسلامية، والهجرة إلى الحبشة، كما نجد أنّ البيعة التي كانت تستهدف تمتين الصلة بين القيادة والجماعة حسب مستجدّات المسيرة الإسلامية، كذلك كانت تصرّفاته في المدينة لا تقل عن تصرّفاته في مكّة في تدعيم كيان الجماعة المسلمة، ومن أبرز هذه التصرّفات التي يمكن أن نشير إليها حرصه على تمييز جماعة المسلمين عن الجماعات المشركة والكافرة وقصده إلى ذلك في كثير من الأفعال والأعمال.

إذن جماعة المسلمين أمر عظيم في الكيان الإسلامي، فهل وعي علماء الأُمّة الإسلامية الذين هم ورثة الأنبياء أهمّية الجماعة؟ وما الذي فعلوه نحوها؟



الفصل الثالث

دور علماء المسلمين في تدعيم كيان الجماعة



أولاً :

أقوال علماء المسلمين

لقد وعي علماء المسلمين على مدار التاريخ فحوى أحكام القرآن وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله نحو الجماعة، لذلك قعّدوا كثيراً من الأحكام الفقهية التي تميّز أهل السنّة عن الشيعة والخوارج والمعتزلة فيما يتعلّق بطاعة الإمام وضوابط الخروج عليه، والدارس لهذا الفقه يرى أنّ الدافع له هو الحرص على وحدة جماعة المسلمين، والوعي لأهمية تلك الوحدة، والإدراك لأخطار تمزّقها وتشقّقها، وأهم الأحكام الفقهية التي تميّز بها أهل السنّة والجماعة هي:

١- الصبر على إمام الجور وعدم الخروج عليه.

٢- تقييد الخروج بألاّ يؤدّي إلى فتنة أكبر.

٣- وجوب الخروج والعزل في كالة الكفر البواح.

٤- إقرار إمامة السلطان الذي يأخذ الحكم بالغلبة.

٥- الغزو مع الأمراء أبراراً كانوا أم فجّاراً.

ونحن سنلم بكل الأحكام السابقة من خلال ثلاثة أئمّة هم: ابن حجر العسقلاني، وابن تيمية، والنووي رحمهم الله جميعاً.

أ - أقوال ابن حجر العسقلاني:

١- نقل ابن حجر رحمه الله حديثاً رواه أبو هريرة رضي الله عنه يقول فيه أنّ رسول الله ﷺ قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني".

وبعد أن شرح ابن حجر العسقلاني رحمه الله الحديث ينهي كلامه قائلاً: "في الحديث وجوب طاعة ولاة الأمور، وهي مقيّدة بغير الأمر بالمعصية كما تقدّم في أوائل الفتن، والحكمة في الأمر بطاعتهم المحافظة على اتفاق الكلمة لما في الافتراق من الفساد" [(١)] .

٢- ذكر ابن حجر حديثين آخرين هما:

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "مَن كره مِن أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية". وفي رواية أخرى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "مَن رأى مِن أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه مَن فارق الجماعة شبراً فمات إلاّ مات ميتة جاهلية". يشرح ابن حجر العسقلاني رحمه الله الحديثين بكلام طويل ثم يعقّب

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (١٣/١١١-١١٢).

فيقول: "قال ابن بطال: في الحديث حجّة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلّب والجهاد معه، وأنّ طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، وحجّتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلاّ إذا وقع مِن السلطان الكفر الصريح فلا تجوز طاعته في ذلك بل يجب مجاهدته لمن قدر عليها" [(١)].

٣- نقل ابن حجر العسقلاني حديثاً عن عبادة بن الصامت قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلاّ أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان".

يعقّب ابن حجر على شرحه للحديث فيقول: "نقل ابن التين عن الداودي قال: الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، وإلاّ فالواجب الصبر، وعن بعضهم لا يجوز عقد

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (١٣/٥-٧).

الولاية لفاسق ابتداء، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنع إلاّ أن يكفر فيجب الخروج عليه" [(١)].

٤- ثم يشرح ابن حجر حديثاً في كتاب (السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية) هو: عن عبدالله رضي الله عنه [(٢)] عن النبي ﷺ قال: "السمع الطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

يشرحه فيقول: " قوله (ما لم يُؤمر بمعصية) هذا يقيّد ما أطلق في الحديثين الماضيين من الأمر بالسمع والطاعة ولو لحبشي، ومن الصبر على ما يقع من الأمير مما يكره والوعيد على مفارقة الجماعة" [(٣)].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (٨/١٣).

(٢) هو الصحابي عبدالله بن عمر رضي الله عنه .

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (١٢٣/١٣).

أ - أقوال ابن تيمية:

لابن تيمية رحمه الله أقوال كثيرة حول المعاني السابقة مبثوثة في كتبه وفتاويه، لكننا سنجتزئ له قولاً واحداً حول الغزو مع الأمراء أبراراً كانوا أم فجاراً من أجل إقامة شرائع الإسلام.

يقول ابن تيمية: "ولهذا كان من أصول أهل السنّة والجماعة الغزو مع كل بر وفاجر، فإنّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خَلاق لهم كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه إذا لم يتفق الغزو إلاّ مع الأمراء الفجّار أو مع عسكر كثير الفجور فإنه لابد من أحد أمرين: إمّا ترك الغزو معهم فيلزم من ذلك إستيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضرراً فى الدين والدنيا. وإمّا الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين، وإقامة أكثر شرائع الإسلام، وإن لم يمكن إقامة جميعها. فهذا هو الواجب فى هذه الصورة وكل ما أشبهها، بل كثير من الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين لم يقع إلاّ على هذا الوجه" [1].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوي (٢٨/٢٢٩).

ج- أقوال النووي:

جاء في شرحه فقرة من حديث رسول الله ﷺ هي: "إلاّ أن تروا كفراً بواحاً عندكم مِن الله فيه برهان" قال النووي رحمه الله: "والمراد هنا بالكفر المعاصي، ومعنى "عندكم مِن الله فيه برهان" أي تعلمونه من دين الله تعالى، ومعنى الحديث لا تُنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلاّ أن تروا منهم منكراً محقّقاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا الحق حيث ما كنتم، وأمّا الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين". ثم ينقل قولاً للقاضي عياض فيقول: "قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أنّ الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها، قال: وكذلك عند جمهورهم البدعة، قال القاضي: فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج من حكم الولاية وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلاّ لطائفة وجب عليهم خلع الكافر، ولا يجب في المبتدع إلاّ إذا ظنّوا القدرة عليه، فإن تحقّقوا العجز لم يجب القيام، وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها، ويفرّ بدينه.

قال: ولا تنعقد لفاسق ابتداء، فلو طرأ على الخليفة فسق قال بعضهم يجب خلعه إلاّ أن تترتّب عليه فتنة وحرب" [(١)].

والآن اتضح لنا من خلال العرض السابق أنّ القرآن الكريم والسنّة المشرّفة أوجبا الجماعة على المسلم، وجاءت أفعال الرسول ﷺ في جميع مراحل الدعوة الإسلامية مؤكّدة على استهدافه بناء الجماعة المسلمة -كما رأينا- سواء في مكّة أم في المدينة، ورأينا دور علماء المسلمين في المحافظة على الجماعة.

والآن ما هو معنى الجماعة؟ وما هو تفسير هذا اللفظ وكيف فهمه علماء أُمّتنا؟



(١) النووي، شرح صحيح مسلم (٢/٢٢٩).

ثانياً :

الجماعة : أبعادها وحدودها

الشاطبي خير مَن وضّح معنى "الجماعة" وأبعادها وحدودها، وقد أورد ذلك مفصّلاً في كتابه "الاعتصام" فقال:

"إنّ رواية من روى في تفسير الفرقة الناجية وهي (الجماعة) محتاجة إلى التفسير، لأنه إن كان معناه مبيّناً من جهة تفسير الرواية الأخرى -وهي قوله (ما أنا عليه وأصحابي)- فمعنى لفظ: (الجماعة) من حيث المراد به في إطلاق الشرع محتاج إلى التفسير.

فقد جاء في أحاديث كثيرة منها الحديث الذي نحن في تفسيره، ومنها ما صح عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال: "مَن رأى مِن أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه مَن فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة الجاهلية".

وصح من حديث حُذَيْفة قال: قلت يا رسول الله إنّا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير مِن شر؟ قال:

نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر مِن خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنّون بغير سنّتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: هم مِن جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفِرَق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

وخرّج الترمذي والطبري عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية فقال: إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا فقال: أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد ولا يستشهد، عليكم بالجماعة، وإيّاكم والفُرقة، لا يخلوّن رجل بامرأة، فإنه لا يخلوّن رجل بامرأة إلاّ كان ثالثهما الشيطان، الشيطان مع الواحد وهو مِن الاثنين أبعد، ومَن أراد بحبوحة الجنّة فليلزم الجماعة، ومَن سرّته حسنته وساءته سيّئته فذلك هو المؤمن.

وفي الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الله لا يجمع أُمّتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ إلى النار.

وخرّج أبو داود عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: مَن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام مِن عنقه.

وعن عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون في أُمّتي هنات وهنات، فمَن أراد أن يُفرّق أمر المسلمين وهم جميع فاضربوه بالسيف كائناً مَن كان.

فاختلف الناس في معنى الجماعة المرادة في هذه الأحاديث على خمسة أقوال:

أحدها: أنها السواد الأعظم من أهل الإسلام وهو الذي يدل عليه كلام أبي غالب: إنّ السواد الأعظم هم الناجون من الفِرَق، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية، سواء خالفهم في شيء من الشريعة أو في إمامهم وسلطانهم فهو مخالف للحق.

ومن قال بهذا أبو مسعود الأنصاري وابن مسعود، فروي أنه لما قُتل عثمان سئل أبو مسعود الأنصاري عن الفتنة فقال: عليك بالجماعة فإنّ الله لم يكن ليجمع أُمّة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر. وقال: إيّاك والفُرقة فإنّ الفُرقة هي الضلالة. وقال ابن مسعود: عليكم بالسمع والطاعة فإنها حبل الله الذي أمر به. ثم قبض يده وقال: إنّ الذي تكرهون في الجماعة خير من الذين تحبون في الفُرقة. وعن الحسين قيل له: أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ ؟ فقال: إي والذي لا إله إلا هو، ما كان الله ليجمع أُمّة محمد على ضلالة.

فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأُمّة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم، لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذّوا وهم نهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البِدَع لأنهم مخالفون لمن تقدّم من الأُمّة لم يدخلوا في سوادهم بحال.

والثاني: إنها جماعة أئمّة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأُمّة مات ميته جاهلية، لأنّ جماعة الله العلماء جعلهم الله حُجّة على العالمين، وهم المعنيّون بقوله عليه الصلاة والسلام: "إنّ الله لن يجمع

أُمّتي على ضلالة" وذلك أنّ العامة عنها تأخذ دينها، وإليها تفزع من النوازل، وهي تَبَع لها. فمعنى قوله: "لن تجتمع أُمّتي" لن يجتمع علماء أُمّتي على ضلالة.

وممن قال بهذا عبدالله بن المبارك، و إسحاق بن راهويه، وجماعة من السلف وهو رأي الأصوليين، فقيل لعبدالله بن المبارك: مَن الجماعة الذين ينبغي أن يُقتدى بهم؟ قال: أبو بكر وعمر، فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت والحسين بن واقد، فقيل: هؤلاء ماتوا: فمن الأحياء؟ قال: أبو حمزة السكري.

وعن المسيب بن رافع قال: كانوا إذا جاءهم شيء من القضاء ليس في كتاب الله ولا سنّة رسول الله سمّوه (صوافي الأمراء) فجمعوا له أهل العلم، فما أجمع رأيهم عليه فهو الحق، وعن إسحاق بن راهويه نحواً مما قال ابن المبارك.

فعلى هذا القول لا مدخل في السؤال لمن ليس بعالم مجتهد، لأنه داخل في أهل التقليد، فمن عمل منهم بما يخالفهم فهو صاحب الميتة الجاهلية، ولا يدخل أيضاً أحد من المبتدعين، لأنّ العالم لا يبتدع، وإنما يبتدع من ادّعى لنفسه العلم وليس كذلك، ولأنّ البدعة قد أخرجته عن

نمط من يعتد بأقواله، وهذا بناء على القول بأنّ المبتدع لا يُعتد به في الإجماع، وإن قيل بالاعتداد به فيه ففي غير المسألة التي ابتدع فيها، لأنهم في نفس البدعة مخالفون للإجماع، فعلى كل تقدير لا يدخلون في السواد الأعظم رأساً.

والثالث: إنّ الجماعة هي الصحابة على الخصوص، فإنهم الذين أقاموا عماد الدين وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلاً، وقد يمكن فيمن سواهم ذلك، ألا ترى قوله عليه الصلاة والسلام: "ولا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله" وقوله: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس". فقد أخبر عليه الصلاة والسلام أنّ من الأزمان أزماناً يجتمعون فيها على ضلالة وكفر، قالوا وممن قال بهذا القول عمر بن عبدالعزيز، فروى ابن وهب عن مالك قال: كان عمر بن عبدالعزيز يقول: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سُنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله تعالى، واستكمال لطاعة الله، وقوّة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها! من اهتدى بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاّه الله ما تولّى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً. فقال مالك: فأعجبني عزم عمر على ذلك.

فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى في قوله عليه الصلاة والسلام: "ما أنا عليه وأصحابي" فكأنه راجع إلى ما قالوه وما سنّوه وما اجتهدوا فيه حُجّة على الإطلاق وبشهادة رسول الله ﷺ لهم بذلك خصوصاً في قوله: "فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين" وأشباهه، أو لأنهم المتقلّدون لكلام النبوة، المهتدون للشريعة، الذين فهموا أمر دين الله بالتلقّي من نبيّه مشافهة، على علم وبصيرة بمواطن التشريع وقرائن الأحوال، بخلاف غيرهم، فإذن كل ما سنُّوه فهو سنّة من غير نظير فيه، بخلاف غيرهم، فإنّ فيه لأهل الاجتهاد مجالاً للنظر رداً وقبولاً، فأهل البدع إذن غير داخلين في الجماعة قطعاً على هذا القول.

والرابع: إنّ الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل المِلَل اتباعهم، وهم الذين ضمن لنبيّه عليه الصلاة والسلام أن لا يجمعهم على ضلالة، فإن وقع بينهم اختلاف فواجب تعرّف الصواب فيما اختلفوا فيه، قال الشافعي: الجماعة لا تكون فيها غفلة عن كتاب الله، ولا سنُة ولا قياس، وإنما تكون الغفلة في الفُرقة.

وكأنّ هذا القول يرجع إلى الثاني وهو يقتضي أيضاً ما يقتضيه، أو يرجع إلى القول الأول وهو الأظهر، وفيه من المعنى ما في الأول من أنه

لابد من كون المجتهدين فيهم، وعند ذلك لا يكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلاً، فهم -إذن- الفِرقة الناجية.

والخامس: ما اختاره الطبري الإمام من أنّ الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير فأَمَر عليه الصلاة والسلام بلزومه، ونهى عن فراق الأُمّة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم، لأنّ فراقهم لا يعدو إحدى حالتين: إمّا للنكير عليهم في طاعة أميرهم والطعن عليه في سيرته المرضية لغير موجب، بل بالتأويل في إحداث بدعة في الدين كالحَرُورِيّة التي أُمِرت الأُمّة بقتالها وسمّاها النبي ﷺ مارقة من الدين، وإمّا لطلب إمارة من انعقاد البيعة لأمير الجماعة، فإنه نكث عهد ونقض عهد بعد وجوبه.

وقد قال ﷺ: "مَن جاء إلى أُمّتي ليفرّق جماعتهم فاضربوا عنقه كائناً مَن كان" قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

قال: وأمّا الجماعة التي إذا اجتمعت على الرضى بتقديم أمير كان المفارق لها ميّتاً ميتة جاهلية، فهي الجماعة التي وصفها أبو مسعود الأنصاري، وهم معظم الناس وكافتهم من أهل العلم والدين وغيرهم، وهم السواد الأعظم.

قال: وقد بيّن ذلك عمر بن الخطاب ﵁، فرُوِيَ عن عمر بن ميمون الأودي قال: قال عمر حين طُعن لصُهَيْب: صلّ بالناس ثلاثاً وليدخل علي عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن، وليدخل ابن عمر في جانب البيت وليس له من الأمر شيء، فقم يا صهيب على رؤوسهم بالسيف، فإن بايع خمسة ونكص واحد فاجلد رأسه بالسيف، وإن بايع أربعة ونكص رجلان فاجلد رأسيهما حتى يستوثقوا على رجل.

قال: فالجماعة التي أمر رسول الله ﷺ بلزومها وسمّى المنفرد عنها مفارقاً لها نظير الجماعة التي أوجب عمر الخلافة لمن اجتمعت إليه، وأمر صُهَيْباً بضرب رأس المنفرد عنهم بالسيف. فهم في معنى كثرة العدد المجتمع على بيعته وقلّة العدد المنفرد عنهم.

قال: وأمّا الخبر الذي ذكر فيه أن لا تجتمع الأُمّة على ضلالة فمعناه أن لا يجمعهم على إضلال الحق فيما نابهم من أمر دينهم حتى يضل جميعهم عن العلم ويخطئوه، وذلك لا يكون في الأُمّة. هذا تمام كلامه وهو منقول بالمعنى و تحر في أكثر اللفظ.

وحاصله؛ أنّ الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنّة وذلك ظاهر في أنّ الاجتماع على غير سنّة خارج عن

معنى الجماعة المذكور في الأحاديث المذكورة، كالخوارج ومن جرى مجراهم"[1].

ثم يكمل الشاطبي حديثه ويؤكّد أنّ معنى السواد الأعظم هم العلماء وليسوا أعوام الناس، يوضّح ذلك فيقول:

"وذلك أنّ الجميع اتفقوا على اعتبار أهل العلم والاجتهاد سواء ضمّوا إليهم العوام أم لا، فإن لم يضمّوا إليهم فلا إشكال لأنّ الاعتبار إنما هو بالسواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهادهم، فمن شذّ عنهم فمات فميتته جاهلية، وإن ضمّوا إليهم العوام فبحكم التبع لأنهم غير عارفين بالشريعة، فلابد من رجوعهم في دينهم إلى العلماء، فإن هم تمالأوا على مخالفة العلماء فيما حدّدوا لهم لكانوا هم الغالب والسواد الأعظم في ظاهر الأمر لقلّة العلماء وكثرة الجهّال، فلا يقول أحد: إنّ اتباع جماعة العوام هو المطلوب، وإنّ العلماء هم المفارقون للجماعة والمذمومون في الحديث، بل الأمر بالعكس، وأنّ العلماء هم السواد الأعظم وإن قلّوا، والعوام هو المفارقون للجماعة إن خالفوا، فإن وافقوا فهو الواجب عليهم.

---

(١) الشاطبي، الاعتصام (٢/٤٤٧-٤٥٢).

ومن هنا لما سُئل ابن المبارك عن الجماعة الذين يُقتدى بهم أجاب بأن قال: أبو بكر وعمر، قال: فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت والحسين بن واقد، قيل: فهؤلاء ماتوا! فمِنَ الأحياء؟ قال: أبو حمزة السكري، وهو محمد بن ميمون المروزي، فلا يمكن أن يعتبر العوام في هذه المعاني بإطلاق، وعلى هذا لو فرضنا خلو الزمان عن مجتهد لم يمكن اتباع العوام لأمثالهم، ولا عُدّ سوادهم أنه السواد الأعظم المنبَّه عليه في الحديث الذي من خالفه فميتته جاهلية، بل يتنزّل النقل عن المجتهدين منزلة وجود المجتهدين، فالذي يلزم العوام مع وجود المجتهدين هو الذي يلزم أهل الزمان المفروض الخالي عن المجتهد.

وأيضاً فاتباع نظر من لا نظر له واجتهاد من لا اجتهاد له محض ضلالة، ورمي في عماية، وهو مقتضى الحديث الصحيح: "إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً" ..الحديث .

روى أبو نعيم عن محمد بن القاسم الطوسي قال: سمعت إسحاق بن راهويه وذكر في حديث رفعه إلى النبي ﷺ قال: "إنّ الله لم يكن ليجمع أُمّة محمد على ضلالة فإذا رأيتم الإختلاف فعليكم بالسواد الأعظم" فقال رجل يا أبا يعقوب! من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن

أسلم وأصحابه ومن تبعهم، ثم قال: سأل رجل ابن المبارك: من السواد الأعظم؟ قال: أبو حمزة السكري، ثم قال إسحاق: في ذلك الزمان (يعني أبا حمزة) وفي زماننا محمد بن أسلم ومن تبعه، ثم قال إسحاق: لو سألت الجهّال عن السواد الأعظم لقالوا: جماعة الناس. ولا يعلمون أنّ الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه فهو الجماعة، ثم قال إسحاق: لم أسمع عالماً منذ خمسين سنة كان أشد تمسكاً بأثر النبي ﷺ من محمد بن أسلم. فانظر في حكايته تتبيّن غلط من ظنّ أنّ الجماعة هي جماعة الناس وإن لم يكن فيهم عالم، وهو وَهْم العوام، لا فهم العلماء، فليثبّت الموفّق في هذه المزلة قدمه لئلا يضل عن سواء السبيل ولا توفيق إلا بالله" [(١)].

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها على ضوء كلام الشاطبي السابق أنّ الجماعة لها معنيان:

١- هو الالتزام بالحق الموجود في الكتاب والسنّة، والخروج عن الجماعة بهذا المعنى هو الابتداع والضلال.

---

(١) الشاطبي، الاعتصام (٢/٤٥٢-٤٥٣).

٢- هو الالتزام بإمام جماعة المسلمين وطاعته، والخروج عن الجماعة بهذا المعنى هو البغي والعدوان [(١)].

إذن الجماعة هي حق تدور حوله هذه الجماعة ويلتف حوله علماء الأُمّة وعوامها وإمامها، ويقوم الجميع بواجباتهم الإسلامية التي نص عليها الشرع الإسلامي.

لكن يحدث أحياناً تقصير من إمام جماعة المسلمين، أو انحراف في مسيرته، أو قصور في أجزاء وأماكن من بلاد المسلمين، فمَن الذي سيجبر النقص؟ ومَن الذي يسدّد المسيرة؟ ومَن الذي سيرتق الفتق؟

الطائفة الظاهرة هي التي ستقوم بجبر النقص وتسديد المسيرة ورتق الفتق، فمَن هي هذه الطائفة الظاهرة؟؟

---

(١) أشار الدكتور الصاوي إلى أنّ هذا الفهم للجماعة قد فهمه عدد من العلماء في القديم والحديث، انظر تفصيل هذا الرأي في كتابه "مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية" ص ٣٠-٤٠ .

وحتى نستطيع أن نجيب على هذا السؤال سنستعرض في الصفحات التالية الأحاديث التي تحدّثت عنها، ثم سنرى تفسير بعض العلماء الأجلاء لهذه الأحاديث، ثم سننقل شهادة التاريخ في ذلك.

ثالثاً :



الطائفة الظاهرة ودورها في الأُمّة الإسلامية

وردت عدّة أحاديث عن الرسول ﷺ تتحدّث عن هذه الطائفة وعن صفاتها وعن مكانها وعن زمانها، ونحن سننقل هذه الأحاديث بكاملها:

عن عُمَير بن هانيء أنه سمع معاوية رضي الله عنه على المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لاتزال طائفة من أُمّتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم مَن خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس" [1]. وفي رواية قال عُمَير: فقال مالك بن يخامر: قال معاذ: "وهم بالشام" فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: "وهم بالشام". وفي رواية عن معاوية رضي الله عنه: "مَن يُرد الله به خيراً يفقّهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأُمّة قائمة على أمر الله لا يضرّهم مَن

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق (٥٣/٦).

خالفهم حتى يأتي أمر الله" [1].

وعن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تزال طائفة مِن أُمّتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة" [2].

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لن يزال قوم مِن أُمّتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله" [3].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لاتزال طائفة مِن أُمّتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة" [4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين (٢٧/١).

(٢) أخرجه الحاكم (٤٤٩/٤)، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٤٥/٦) رقم (٧١٦٤).

(٣) (٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق (٥٣/٦).

وفي رواية عنه ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لاتزال طائفة مِن أُمّتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا فيقول: لا، إنّ بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأُمّة" [١].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة" [٢].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لاتزال طائفة مِن أُمّتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك" [٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لاتزال طائفة من

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة محمد ﷺ (١/٩٥).

(٢) (٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق (٦/٥٢-٥٣).

أُمّتي قوّامة على أمر الله، لا يضرّها من خالفها" [(١)].

وعن عمران بن حُصَين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لاتزال طائفة مِن أُمّتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على مَن ناوَأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجّال" [(٢)].

وعن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لايزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة" [(٣)].

وعن معاوية بن قرة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لاتزال طائفة من أُمّتي منصورين، لا يضرّهم مَن

---

(١) سنن ابن ماجه (١/٧)، والشيخ ناصر الدين الألباني في الأحاديث الصحيحة (٤/٦٠٣) حديث رقم (١٩٦٢).

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب ، باب في دوام الجهاد، رقم (٢١٢٥). وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم (٢٢٤٥).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق (٦/٥٤).

خذلهم حتى تقوم الساعة" [١].

وعن جبير بن نفير رضي الله عنه عن سلمة بن نفيل الكندي رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال: كذبوا، الآن الآن جاء القتال، ولا يزال من أُمّتي أُمّة يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة..." [٢].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: "لاتزال طائفة مِن أُمّتي ظاهرين على الحق لعدوّهم قاهرين لا يضرّهم مَن خالفهم إلا ما أصابهم مِن لَأْواء وهم كالإناء بين الأكلة حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت

---

[١] صحيح سنن الترمذي، صححه الشيخ ناصر الدين الألباني (١٩٢/٥)، حديث رقم (٢١٩٢).

[٢] صحيح سنن النسائي، صححه الشيخ ناصر الدين الألباني (١٢٣/٨)، حديث رقم (٣٦٣٣).

المقدس؟" [1].

وعن عبدالرحمن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبدالله بن عمرو بن العاص فقال عبدالله: لا تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلاّ ردّه عليهم. فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبدالله، فقال عقبة: هو أعلم، وأمّا أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تزال عصابة مِن أُمّتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم مَن خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك" فقال عبدالله: أجل ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبّة مِن الإيمان إلاّ قبضته ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة" [2].

(١) أخرجه الطبراني في تهذيب الآثار.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق (٦/٥٤).

أولاً: تفسير النووي للحديث السابق:

قال النووي في شرح صحيح مسلم: "قوله ﷺ (لا تزال طائفة مِن أُمّتي ظاهرين على الحق لا يضرّهم مَن خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) هذا الحديث سبق شرحه مع ما يشبهه فى أواخر كتاب الايمان، وذكرنا هناك الجمع بين الأحاديث الواردة فى هذا المعنى، وأنّ المراد بقوله ﷺ (حتى يأتى أمر الله) مِن الريح التى تأتى فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة، وأنّ المراد برواية مَن روى (حتى تقوم الساعة) أي تقرب الساعة وهو خروج الريح، وأمّا هذه الطائفة فقال البخارى: هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَن هم، قال القاضي عِياض: انما أراد أحمد أهل السنّة والجماعة ومَن يعتقد مذهب أهل الحديث، قلت: ويحتمل أنّ هذه الطائفة مفرّقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدّثون، ومنهم زهّاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى مِن الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض، وفى هذا الحديث معجزة ظاهرة فإنّ هذا الوصف مازال بحمد الله تعالى مِن زمن النبى ﷺ إلى الآن ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور فى الحديث،

وفيه دليل لكون الإجماع حُجّة، وهو أصح ما استدل به له من الحديث، وأمّا حديث (لا تجتمع أُمّتي على ضلالة) فضعيف [(١)] والله أعلم. قوله ﷺ (ظاهرين على مَن ناوَأَهم) هو بهمزة بعد الواو أي عاداهم، وهو مأخوذ مِن نأى إليهم ونأوا إليه أي نهضوا للقتال. قوله (مسلمة بن مُخَلّد) بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام. قوله ﷺ (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) قال على بن المديني: المراد بأهل الغرب العرب، والمراد بالغرب الدلو الكبير لاختصاصهم بها غالباً، وقال آخرون: المراد به الغرب مِن الأرض، وقال معاذ: هم بالشام، وجاء في حديث آخر (هم ببيت المقدس)، وقيل هم أهل الشام وما وراء ذلك، قال القاضي: وقيل المراد بأهل الغرب أهل الشدّة والجَلَد وغرب كل شيء حدّه" [(٢)].

---

(١) حسّنه الشيخ ناصرالدين الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٣٣١) ونصه "إنّ الله قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة".

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٣/٦٥-٦٨).

ثانياً: تفسير ابن حَجَر للحديث السابق:

قال البخاري في صحيحه: "قول النبي ﷺ: (لاتزال طائفة مِن أُمّتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم) قال ابن حَجَر العسقلاني معقّباً على الحديث السابق: "قوله (وهم أهل العلم) هو مِن كلام المصنِّف، وأخرج الترمذي حديث الباب ثم قال: سمعت محمد بن إسماعيل هو البخاري يقول: سمعت علي بن المديني يقول: هم أصحاب الحديث، وذكر في كتاب (خَلْق أفعال العباد) عقب حديث أبي سعيد في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً) هم الطائفة المذكورة في حديث (لا تزال طائفة مِن أُمّتي) ثم ساقه وقال: وجاء نحوه عن أبي هريرة ومعاوية وجابر وسلمة بن نفيل وقرة بن إياس انتهى. وأخرج الحاكم في علوم الحديث بسند صحيح عن أحمد: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَن هم، ومِن طريق يزيد بن هارون مثله، وزعم بعض الشرّاح أنه استفاد ذلك مِن حديث معاوية لأنّ فيه (مَن يُرِد الله به خيراً يفقّهه في الدين) وهو في غاية البُعد، وقال الكرماني: يؤخذ مِن الاستقامة المذكورة في الحديث الثاني أنّ مِن جملة الاستقامة أن يكون التفقّه لأنه الأصل، قال: وبهذا ترتبط الأخبار المذكورة في حديث معاوية، لأنّ الاتفاق لابد منه، أي المشار إليه

بقوله (وانما أنا قاسم ويعطي الله عز و جل)".

"قوله (حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) أي على مَن خالفهم أي غالبون، أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين بل مشهورون والأول أولى، وقد وقع عند مسلم من حديث جابر بن سمرة (لن يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة مِن المسلمين حتى تقوم الساعة) وله في حديث عقبة بن عامر (لا تزال عصابة مِن أُمّتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوّهم لا يضرّهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة) وقد ذكرت الجمع بينه وبين حديث (لا تقوم الساعة إلاّ على شرار الناس) في أواخر (كتاب الفتن) والقصة التي أخرجها مسلم أيضاً مِن حديث عبدالله بن عمرو (لا تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق، هم شر مِن أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلاّ ردّه عليهم) ومعارضة عقبة بن عامر بهذا الحديث فقال عبدالله: أجل (ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبّة مِن ايمان إلاّ قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة) وقد أشرت إلى هذا قريباً في الكلام على حديث (قبض العلم) وأنّ هذا أولى ما يتمسّك به في الجمع بين الحديثين المذكورين، وذكرت ما نقله ابن بطال عن الطبري في الجمع بينهما أنّ شرار الناس الذين تقوم عليهم الساعة يكونون بموضع مخصوص، وأنّ موضعاً آخر يكون به طائفة يقاتلون على

الحق لا يضرّهم مَن خالفهم، ثم أورد مِن حديث أبي أمامة نحو حديث الباب، وزاد فيه (قيل يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس) وأطال في تقرير ذلك، وذكرت أنّ المراد بأمر الله: هبوب تلك الريح، وأنّ المراد بقيام الساعة: ساعتهم، وأنّ المراد بالذين يكونون ببيت المقدس: الذين يحصرهم الدجّال إذا خرج، فينزل عيسى إليهم فيَقتُل الدجّال، ويظهر الدين في زمن عيسى، ثم بعد موت عيسى تهب الريح المذكورة، فهذا هو المعتمد في الجمع، والعلم عند الله تعالى".

"قوله (ولن يزال أمر هذه الأُمّة مستقيماً حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله) في رواية عُمَير بن هانئ (لا تزال طائفة مِن أُمّتي قائمة بأمر الله) وتقدّم بعد بابين مِن باب علامات النبوّة مِن هذا الوجه بلفظ (لا يزال مِن أُمّتي أُمّة قائمة بأمر الله، لا يضرّهم مَن خذلهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك) وزاد قال عمير فقال مالك بن يخامر قال معاذ (وهم بالشام) وفي رواية يزيد بن الأصم (ولا تزال عصابة مِن المسلمين ظاهرين على مَن ناوَأَهم إلى يوم القيامة) قال صاحب المشارق في قوله (لا يزال أهل الغَرْب) يعني الرواية التي في بعض طُرق مسلم وهي بفتح الغين المعجمة وسكون الراء، ذكر يعقوب بن شيبة عن علي بن المديني قال: المراد بالغرب الدلو، أي الغرب بفتح المهملتين، لأنهم أصحابها لا يستقي

بها أحد غيرهم، لكن في حديث معاذ (وهم أهل الشام) فالظاهر أنّ المراد بالغرب البلد، لأنّ الشام غربي الحجاز كذا قال: وليس بواضح، ووقع في بعض طُرق الحديث (المغرب) بفتح الميم وسكون المعجمة، وهذا يرد تأويل الغرب بالعرب، لكن يحتمل أن يكون بعض رواته نقله بالمعنى الذي فهمه أنّ المراد الإقليم لا صفة بعض أهله، وقيل المراد بالغرب أهل القوّة والاجتهاد في الجهاد، يقال في لسانه غَرْب بفتح ثم سكون أي حدّة، ووقع في حديث أبي أمامة عند أحمد أنهم ببيت المقدس، وأضاف بيت إلى المقدس، وللطبراني مِن حديث النهدي نحوه، وفي حديث أبي هريرة في الأوسط للطبراني (يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضرّهم مَن خذلهم، ظاهرين إلى يوم القيامة).

قلت ويمكن الجمع بين الأخبار بأنّ المراد قوم يكونون ببيت المقدس وهي شامية، ويسقون بالدلو، وتكون لهم قوّة في جهاد العدو وحدّة وجد"[(١)].

والنتائج التي يمكن أن نتوصّل إليها من خلال كلام النووي

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (١٣/٢٩٣-٢٩٥).

والعسقلاني عن الطائفة الظاهرة:

بأنّ البخاري حدّدها بأهل العلم، وحدّدها أحمد بن حنبل بأهل الحديث، وعقّب القاضي عِياض على قول أحمد فقال: إنما أراد أهل السنّة والجماعة ومن يعتقد مذهب الحديث، ثم أشار النووي إلى أنّ هذه الطائفة الظاهرة يحتمل أن تكون موزّعة بين عدّة اختصاصات: ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه، ومحدّث، ومفسّر، وقائم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد، وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في مكان واحد بل قد يكونون في عدّة أماكن، وهذا هو المعنى الأرجح الجامع لكل الأقوال السابقة، وقد اتفق كل من النووي وابن حجر العسقلاني على أنّ هذه الطائفة ممتدّة في وجودها الزماني إلى قيام الساعة، وحاولا أن يوفّقا بين هذا الحديث وبين الأحاديث التي تقول بأنّ الساعة تقوم على شرار الخَلْق بأنّ ريحاً تأتي كريح المسك، مسّها مس الحرير، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبّة من الإيمان إلاّ قبضته، ثم يبقى الأشرار تقوم عليهم الساعة. ثم كان هناك رأيان في ظهورهما: أنها متغلّبة على غيرها، وأنها مشهورة معروفة، ويمكن أن نقول إنّ الطائفة تجمع بين الصفتين، وقد اتفق الجميع على أنّ مكان هذه الطائفة غرب المدينة، لكن اختلفوا في تحديد هذا الغرب، لكن جاءت بعض الروايات لتحدّد ذلك بأنه الشام وبيت المقدس، وأكناف بيت المقدس.

الفصل الرابع

شهادة التاريخ



قد أكّد التاريخ الإسلامي وجود الطائفة الظاهرة باستمرار والتي تحدّثنا عنها في الفصل السابق في كل المجالات، وقد صوّبت هذه الطائفة مسيرة جماعة المسلمين، وقد أزالت العقبات التي تواجهها، ومِن هذه الطائفة الظاهرة الأعلام التالية:

أولاً :

عمر بن عبدالعزيز (٦٢-١٠١هـ)

انتقلت الخلافة إلى البيت الأُموي على يد معاوية بن أبي سُفيان، وأصبحت عاصمتها الشام بدلاً مِن المدينة، وقد تعاقب عدد مِن الخلفاء أحدثوا كثيراً مِن التغييرات في مجالات متعدّدة منها: المجالات المالية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، والإدارية، وقد انعكس ذلك على حياة المسلمين، لكنّ الله قيّض بعد ذلك للمسلمين عمر بن عبدالعزيز الذي عيّنه سليمان بن عبدالملك خليفة للمسلمين بعده، لكنه بدأ عهده بأن صعد على المنبر وقال: "أيها الناس قد ابتُليت بهذا الأمر مِن غير رأي فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة مِن المسلمين، وإني خلعت ما في أعناقكم مِن بيعتي، فاختاروا لأنفسكم" فصاح الناس: "قد اخترناك ورضيناك في أمرنا باليمن والبركة".

ثم بدأ خلافته برد أمواله إلى بيت مال المسلمين، وكذلك فعل بمال زوجته، ورفض مركب الخليفة وباعه، وردّ أمواله إلى بيت المال، واكتفى ببغلته الشهباء مركباً له، ثم رد المظالم إلى أهلها، وكل مغتصب لدى أُمراء بني أُميّة ردّه على أصحابه، وحرّم على نفسه أن يأخذ شيئاً مِن بيت مال المسلمين، ولبس الثياب الرخيصة بعد أن كان يلبس الديباج، وقاوم جشع التجّار في الأرباح، وعزل الولاة الظالمين قبله.

ورأى نفسه المسؤول الأول عن كل شؤون رعيّته، ورآه الناس مِن أول عهده بالخلافة مُغتمّاً، فقال له مولاه: "مالي أراك مُغتمّاً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتمّ!! ليس أحد مِن الأُمّة إلاّ وأنا أريد أن أصل إليه حقّه غير كاتب إليّ فيه، ولا طالب منّي".

ولقد رفع عمر بن عبدالعزيز الجزْية عمّن أسلم مِن أهل الذمّة، فزاد بذلك الإقبال على الإسلام، وإن كان ذلك سبباً في نقص بيت المال، ورفض طلباً مِن أحد وُلاته بعدم رفع الجِزْية عن هؤلاء حتى لا يضر ذلك ببيت المال، فكتب إليه عمر يقول: "فضع الجِزْية عمّن أسلم قبّح الله رأيك، فالله بعث محمّداً هادياً، ولم يبعثه جابياً".

وتحمّس عمر لنشر الإسلام في البلاد التي فتحها، وقدّم للناس فيها

مختلف ألوان الإغراء والمساعدة، وأمر عمّاله في الولايات بدعوة أهل الذمّة إلى الإسلام، حتى إنّ أحد هؤلاء العمّال في خراسان اعتنق الإسلام على يديه أربعة آلاف شخص. ومِن أثر هذه الحماسة والإغراء انتشر الإسلام في بلاد ما وراء النهر، وفي بلاد السند، وتسمّى الناس هناك بأسماء العرب.

وأرسل عشرة مِن فقهاء المسلمين إلى المسلمين مِن البَرْبَرْ ليُفقّهوهم في الإسلام. وكان يميل إلى التسامح مع أهل الذمّة، ويحب المسالمة مع خصومه، ويطلبهم للمناظرة، كما فعل مع الخوارج.

وأحب العدل والإنصاف وأمر القضاة بالحرص عليه، وراقب عمّاله في الأقاليم، وامتلأ بلاطه مِن أهل التقوى، ولم يستعن إلاّ بالصالحين، ولم يعد في عهده مجال للشعراء المدّاحين، فانصرف الشعر إلى أسلوب ينفع الإسلام والمسلمين، ولقد قلّده في كل ذلك عمّاله، فشاع العدل في الأُمّة، وعمّ الخير في عصره، وغلب التسامح على تصرّفاته.

وكان جريئاً في قول الحق، حريصاً على مصالح الضعفاء، لا ينفق مال الخلافة في غير موضعه، ويرى أنّ الأكباد الجائعة أولى مِن كسوة الكعبة.

قيل له يوماً وهو في مرض موته: يا أمير المؤمنين، أَفْغَرت أفواه بنيك مِن هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم، فقال: "أدخلوهم عليّ" فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً ليس فيهم بالغ!! فلمّا رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: "يا بني، والله ما منعتكم حقاً هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إمّا صالح والله يتولّى الصالحين، وإمّا غير صالح فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله. قوموا عني".

هذه سيرته في أموال المسلمين، وسيرته مع ولاته، وسيرته في العدل بين المسلمين، لكن هناك جانب لا يقل إشراقاً عن هذه الجوانب وهي اهتمامه بالجانب العلمي في حياة المسلمين، فقد نقلت الكتب التي أرّخت لسيرته أنه كتب إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم في عصره أبي بكر بن محمد بن حزم: "أن انظر ما كان مِن حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت درس العلم وذهاب العلماء"، وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة ابنة عبدالرحمن الأنصارية، وقاسم بن محمد بن أبي بكر لأهمّيّتهما.

ولم يكتف رحمه الله بأبي بكر بن حزم، بل كتب إلى عمّاله بالأقاليم:

"انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه"، كما أصدر منشوراً يأمر فيه أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم "فإنّ السنّة كانت قد أُميتت".

ومِن ثم فإنّ المسلمين سيظلّون مدينين لعمر في هذا الميدان العظيم، حيث أقبل على تدوين العلوم الإسلامية المتمثّلة بالحديث بعد أن تعرّض للضياع لانصراف الناس إلى السياسة والإدارة والحروب، وقد أجرى رواتب للعلماء الذين فرّغوا أنفسهم للفقه، فقد كتب إلى والي حمص: "انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه مِن بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا، وإنّ خير الخير أعجله والسلام".

وفي رسالة أخرى لوالي حمص، يزيد الخليفة مشروعه هذا توضيحاً: "مر لأهل الصلاح مِن بيت المال بما يغنيهم، لئلاّ يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا مِن الأحاديث".

ولقد شرح لولاته نظام التعزير الإسلامي، فكتب إلى أحد عمّاله: "إنّ للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسُنناً، فمَن استكملها استكمل الإيمان، ومَن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأُبيّنها لكم

حتى تعملوا بها، وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص".

وقد اهتم عمر بن عبدالعزيز بأمر الشورى، وكان يرى أنّ الحكم الإسلامي قد ابتعد عن المنهج الشوري في اختيار الخليفة بعد معاوية بن أبي سُفيان، لذلك اجتهد في إعادتها إلى واقع الحياة الإسلامية، لكنّ المنيّة عاجلته قبل أن يتخذ خطوات ملموسه في هذا الصدد، وربما كان هذا التوجّه أحد الأسباب التي جعلت خصومه يسرعون في الكَيْد له، والتخطيط في دس السم له [١].

---

(١) انظر الكلام حول هذا الموضوع وغيره في كتاب "ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز" للدكتور عماد الدين خليل.

ثانياً:

الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ)

الشافعي هو محمد بن إدريس بن العبّاس بن عثمان بن شافع بن السائب بن بخيت بن عبد يزيد بن هاشم بن عبدالمطّلب بن عبد مناف، وُلد في غزّة بالشام، على ذلك اتفق الجمهرة الكبرى مِن مؤرّخي الفقهاء، واتفقت الروايات على أنه وُلد عام ١٥٠هـ، والواضح مِن سلسلة نسبه أنه وُلد مِن أب قُرشي مُطّلبي، أمّا أُمّه فهي مِن الأزد وليست قُرشية.

ظهر الذكاء على الشافعي منذ صغره، فاتجه إلى حفظ القرآن الكريم، ثم اتجه إلى استحفاظ أحاديث الرسول ﷺ، ثم اتجه إلى التمكّن مِن اللغة العربية، فخرج إلى البادية ولزم هُذَيلاً، وتعلّم الرماية وأُغرم بها وأجادها.

ثم اتجه إلى المدينة فلزم (مالك بن أنس)، وروى عنه الموَطّأ، واستوعب أثناء مكثه في المدينة فقه الحجاز واليمن، ثم ارتحل إلى بغداد والتقى بالإمام محمد بن الحسن الشيباني وهو حامل فقه العراقيين، فقرأ كتبه عليه، ثم عاد إلى مكّة وهو يحمل وِقْر بعير مِن سماعه مِن الشيباني

بعد أن أقام مدّة سنتين في بغداد تيسّر له فيها الجمع بين فقه الحجازيين وفقه العراقيين.

ثم عمل في اليمن وتعرّض لمحنة نقل على أثرها إلى بغداد، ولكنه نجا بقوّة حُجّته وبشهادة محمد بن الحسن الشيباني وكان ذلك عام ١٨٤هـ.

وفي هذه الأثناء كان التباعد الفقهي بين مدرستي الرأي والحديث يأخذ مداه، وكان الأمر جد خطير، فاجترأ بعضهم على السنّة وشكّك في حُجّيتها، وطلب أن تعرض على القرآن الكريم قبل الأخذ بها، كما اجترأ بعضهم الآخر على حديث الآحاد واعتبر أنه لا يفيد علماً، كما كان الاجتهاد بالرأي يغزو الساحة الفقهية دون أن تضبطه قواعد معيّنة، وكان الاحتمال أن يجنح إلى مظان خطرة تبعد الأُمّة عن الصواب والحق وتوردها موارد التهلكة مع مرور الزمن، ولكنّ الشافعي رحمه الله هداه الله إلى الصواب فأدرك خطورة الانشقاق بين مدرستَي الرأي والحديث وآثاره السيئة على الأُمّة، فأبرزَ حُجّية السنّة وحشد الأدلّة على ذلك فقمع فتنة كبيرة أوشكت أن تثمر شراً عظيماً، وأوضح أنّ السنّة مصدر آخر للحكم، وأنها أنشأت أحكاماً كثيرة، كما حشد البراهين على أنّ حديث الآحاد يفيد علماً وعملاً، وحصر اجتهاد الرأي بالقياس، ووضع أصول

القياس، وأكّد أنه لابد مِن آية أو حديث تكون الأصل الذي يقاس عليه لاستخراج الحكم مِن خلال علّة تجمع بين الأصل والفرع.

إنّ المتعمّق في دراسة الساحة الفقهية قبل الشافعي يرى مدى الاضطراب الذي كانت تعيشه هذه الساحة، ويدرك قيمة النتيجة التي توصّل إليها الشافعي في إعادة الأُمّة إلى طريق الصواب، ويدرك أنّ هذا الجهد كان جهداً مهدياً بحق، ولذلك استحق لقب (ناصر السنّة)، ومجدّد المائة الثانية للهجرة، وبالتالي كان أحد أعلام الطائفة الظاهرة.

ثالثاً:

أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)

أحمد بن حنبل مِن أسرة شيبان، أبوه محمد بن حنبل، وجدّه حنبل بن هلال، وكان مقام أسرة شيبان في البصرة لذلك عُرف أحمد بن حنبل بأنه بصري، انتقل جدّه إلى خراسان، وكان والياً على سرخس في العهد الأُموي، ثم والى الدعوة العباسية، وأبوه محمد كان قائداً، وكانت أسرته بعد انتقالها إلى بغداد تعمل للخلافة العباسية.

وُلد أحمد ببغداد سنة ١٦٤ مِن الهجرة في شهر ربيع الأول، وتذكر الروايات أنّ أباه مات وهو طفل فقامت أُمّه على تربيته، وترك له أبوه ببغداد عقاراً يسكنه وآخر يعطيه كسباً قليلاً يبعده عن سؤال الناس.

وقد اشتهر أحمد بين طلبة العلم، بالتقوى والصبر والجَلَد، وقد اتجه أحمد بن حنبل في أول شبابه إلى الحديث، فجمع حديث بغداد، واستمر مقيماً فيها مِن عام ١٧٩ للهجرة إلى عام ١٨٦ للهجرة، ثم ارتحل يجمع الحديث مِن البلاد الأخرى فسافر إلى البصرة والحجاز واليمن، فدوّن كل ما سمعه، واجتمع له المسند الذي يعتبر من أضخم كتب الحديث.

إذن نشأ أحمد بن حنبل في بغداد التي كانت آنذاك في ذروة مجدها وملتقى التيارات الثقافية في العالم، وكانت بدأت دورة مِن الصراعات فيما بينها، فكان التصوّف يجتهد في أن يحفر طريقه في حياة الأُمّة عن طريق الجُنَيْد وغيره، كما كان علم الكلام قد أخذ مجراه بعد أن أثار فتنته الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ورسّخ مقولاته بِشر المريسي وإبراهيم بن سيار النظام وغيرهم، كما كان أصحاب مدرسة الرأي قد تصادموا مع أصحاب مدرسة الحديث لكنّ الشافعي استطاع أن يرسّخ مدرسة الحديث بالأصول التي وضعها لها في كتاب (الرسالة).

في مثل هذا الجو ترعرع أحمد بن حنبل فكان له دور في تصحيح مسار الأُمّة، وفي تثبيت قواعد الصواب فيها:

ففي مجال التصوّف سدّد مسيرة الأُمّة ونأى بها عن بِدَع التصوّف وشِركيّاته وألّف كتاب (الزهد) الذي يعتبر أصلاً في بناء القلوب ليواجه التصوّف وانحرافاته.

وفي مجال تدعيم مدرسة الحديث في مواجهة مدرسة الرأي دعم أحمد بن حنبل ما بناه الشافعي وزاد عليه أن ألّف (المسند) الذي جمع فيه آلاف الأحاديث ليكون للمسلمين (إماماً)، يُحيي مِن خلاله سنن

الرسول ﷺ وآدابه وطرائقه في مواجهة البِدَع والخرافات، وربط المسلم بجيل الصحابة عندما أخذ بفتوى الصحابي مِن أجل مزيد مِن الاقتداء بذاك الجيل المهدي الذي اقتبس مِن نور النبوّة.

لكنّ الجهد الأوفى والأشهر مِن معارك أحمد بن حنبل هي معركة المواجهة مع الزنادقة والجُهْمِيّة لذلك ألّف كتابه (رسالة الرد على الزنادقة والجُهْمِيّة)، وقد كانت ذروة المواجهة فتنة القول بخَلْق القرآن، وكان القول بخَلْق القرآن سابقاً على نشأته، فقد قال به جعد بن درهم والجَهْم بن صفوان، وبِشر المريسي الذي حاججه الشافعي، وقد تصدّى علماء أُمّتنا لهذه الفتنة ومنهم: ابن المبارك، ومجاهد، ومالك، والشافعي، والحسن البصري، ومسلم، وأبو داود، والخلاّل ممّا كاد يجعل أثر تلك الفتنة محدوداً، لكنّ هذا القول أخذ مساراً آخر عندما قال الخليفة المأمون بخَلْق القرآن في خلافته، ولم يقف الموضوع عند قوله بل تعدّاه إلى فرضه على الأُمّة، وزيّن له وزيره ابن أبي دؤاد أن يمتحن علماء الأُمّة فباشر ذلك، وكتب إلى ولاته لكي يقوموا بذلك، فتصدّى أحمد بن حنبل لذلك القول ورفض الإقرار به، ثم حُمل مِن بغداد إلى المأمون الذي كان يقيم على الثغور آنذاك، ولكنّ المأمون تُوفّي عندما كان أحمد بن حنبل في طريقه إليه، وتولّى المعتصم الخلافة بعد المأمون، وأمضى القول بما كان يقول به أخوه، وثبت

أحمد بن حنبل على قوله وهو أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وتعرّض للسجن والتعذيب والأذى خلال خلافة المعتصم، ثم جاء بعده الواثق وقال بما قال به المأمون والمعتصم مِن خَلْق القرآن، لكنّ أحمد بن حنبل ثبت على رفضه القول بذلك، وحاور خصومه وأقام الحُجّة عليهم، ثم انتهت الغُمّة عندما جاء المتوكّل ورفع ذلك القول عن رقاب العلماء، فأصبحت حُجج أحمد بن حنبل التي قالها على أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق وبراهينه التي أقامها نبراساً للأُمّة ومنهاجاً لجماعة المسلمين، وهكذا أصلح العالم أحمد بن حنبل المعْوَج مِن أمر الخلافة، وأخذت الأمور بفضل الله ثم بفضل موقفه وصدعه بالحق مسارها الصحيح في الأُمّة كلها بعد ذلك، وذهب سيف القول بخَلْق القرآن عن السلطة.

الخلاصة: استشرى الانحراف بالقول بخَلْق القرآن، وكاد الضلال يعم الأُمّة، وصدق الرسول الكريم ﷺ الذي بشّر أُمّته بأنّ هناك طائفة ظاهرة تصدع بالحق، وتقول به في كل آنٍ وزمان إلى قيام الساعة، فكان أحمد بن حنبل مثالاً على رجل مِن رجالات هذه الطائفة التي جهرت بالحق، وأعلت شأنه، ورفعت رايته، وكانت الغلبة لها في النهاية حيث اندحر قول الجُهْمِيّة في النهاية.

رابعاً :

ابن تيميّة (٦٦١-٧٢٨هـ)

وُلد ابن تَيْمِيَّة عام ٦٦١ هجرية في حرّان في أسرة عُرفت بالعلم، فقد كان أبوه وجدّه مُحدِّثَيْن، وقد اضطرت أسرته للارتحال مِن موطنها إلى دمشق ولما يتم ابن تيميّة السابعة مِن عمره عندما اجتاح التتار شرقي البلاد الإسلامية.

إذن نشأ ابن تيميّة في دمشق التي كانت تعتبر آنذاك أحد المراكز الأساسية للعلوم الإسلامية وثقافتها، فحفظ القرآن الكريم، ودرس الحديث الشريف، وبدت عليه مظاهر النبوغ والنجابة منذ أن كان صغيراً، وأكبّ على علوم عصره ينهل منها، وتتلمذ على العلماء البارزين يستفيد منهم، حتى نضجت شخصيته، وجلس للتدريس في مرحلة مبكّرة مِن حياته.

الجهاد في حياة شيخ الإسلام ابن تيميّة:

لم يكن ابن تيميّة عالماً فحسب، بل كان عالماً عاملاً، امتلأت حياته بمواجهة الظالمين، ومقاتلة أعداء الدين، ومِن أبرز الذين قاتلهم ابن تيميّة وحمل السيف في وجههم التتار.

جهاد التتار:

جاءِ التتار إلى الشام عام ٦٩٩ هجرية بعد أن هزموا جند الناصر بن قلاوون، وفرّ أغلب أعيان الشام إثر هذا الانهزام، وعاش عامة الناس في فوضى ورعب شديدين خوفاً مِن هجوم التتار عليهم، لكنّ ابن تيميّة بقي إلى جانبهم، فجمع مَن تبقّى مِن أعيانهم، ووضع خطّة لضبط الأمور داخل دمشق، واقترح تشكيل وفد لمخاطبة (قاران) ملك التتار، وذهب ابن تيميّة ضمن الوفد، وألقى الله تعالى مهابته في قلب قاران، وأغلظ له القول، واستطاع أن يقنعه بعدم دخول دمشق، ثم ترامت الأنباء عام ٧٠٠ هجرية أنّ التتار سيقصدون دمشق، فبدأ الناس يفرّون خوفاً مثل المرّة الأولى.

لكنّ ابن تيميّة بدأ يحث المسلمين على القتال، وأوجب عليهم جهاد التتار، ورغّبهم في إنفاق الأموال مِن أجل تجهيز عدّة القتال، ثم طلب منه أعيان دمشق ونائب السلطان فيها أن يذهب إلى مصر لحث السلطان على نصرة أهل الشام، ففعل ذلك، ومازال بالسلطان يكلّمه ويحثّه ويذكّره حتى خرج بجنده إلى دمشق. ولما علم التتار أنّ خصومهم جهّزوا أنفسهم التجهيز الجيد عادوا ولم يهاجموا دمشق.

سار التتار مرّة ثالثة إلى دمشق عام ٧٠٢ هجرية، وامتطى ابن تيميّة هذه المرّة صهوة جواده، وامتشق حسامه مشجّعاً المسلمين، موضّحاً لهم أحكام دينهم، مؤكّداً انتصارهم على عدوّهم، ووقعت المعركة التي سُمّيت في التاريخ (معركة شقحب) في رمضان مِن عام ٧٠٢ هجرية، وانتصر فيها المسلمون على التتار.

وكانت طائفة النُّصَيْرِيَّة التي تسكن غرب دمشق قد مالأت التتار في قتالهم، فحرّض ابن تيميّة السلطان عليهم وحذّره منهم، وخرج إليهم في جماعة مِن أصحابه ومعه نقيب الأشراف، ثم تبعه جنود المسلمين، وقاتلوا حاملي السلاح منهم.

السجن في حياة ابن تيميّة:

دخل ابن تيميّة السجن عدّة مرّات، وهي ضريبة دفعها ثمن كلمة الحق التي كان لا يتهاون في الجهر بها، وثمن وِشاية الواشين به عند ذوي السلطان، ولكنه كان يعتبر ذلك غنماً لا غرماً كما قال في كلمته المشهورة: "ما يظنّ أعدائي أنهم يفعلون بي؟ إنّ جنّتي في صدري، إنّ قتلي شهادة، وإنّ سجني خُلوة، وإنّ نفيي سياحة". إنه منطق الإيمان والاستسلام لقضاء الله الذي كان يملأ جوانح ابن تيميّة.

أ – سجنه في مصر:

دخل ابن تيميّة السجن عام ٧٠٥ هجرية في مصر إثر رفضه أن يقف منه قاضي المالكية هناك موقف الخصم والحكم حين اتهم ببعض أمور العقيدة التي طرحها في رسائله، ثم حاول الأمير حاكم القاهرة مع قضاتها إخراجه مِن السجن بعد مرور سنة، مقابل تراجعه عن بعض ما طرحه في العقيدة، فرفض ذلك. ثم خرج مِن السجن بعد أن توسّط له أمير عربي اسمه (عيسى بن مهنا) وكان قد مكث فيه ثمانية عشر شهراً، ثم بدأ يعظ الناس ويفقّههم في أمور دينهم، وكانت طائفة المتصوّفة ذات الحظ الواسع في الانتشار أكثر الفئات التي تصادم معها، وبالذات فيما يتعلّق بعقيدتها في وحدة الوجود وفي الاستغاثة بغير الله، فهو يؤكّد أنّ الاستغاثة تكون بالله وحده جلّ وعلا، فأثار هذا الموقف الضجّة حوله، وضاقت الدولة ذرعاً بهذه الحالة، فخيّرته بين العودة إلى دمشق أو الذهاب إلى الاسكندرية بشرط ألاّ يُعلن عن اعتقاده في هذين الموطنين، أو يدخل السجن مرّة ثانية، فاختار السجن. لكنّ تلاميذه أقنعوه بالمضي إلى دمشق، في حين أنّ الدولة أقرّت حبسه، ودخل السجن في شوال ٧٠٧ للهجرة، لكنه كان حبساً أقرب إلى الإقامة المقيّدة، فاستمر على الاتصال

بالناس.

ثم عزل السلطان الناصر بن قلاوون نفسه عن الحكم، وتولاّه بعده المظفّر بيبرس، فنفى ابن تيميّة إلى الاسكندرية، ومكث فيها سبعة أشهر، وكانوا يريدون مِن نفيه إلى الاسكندرية أن يبطش متصوّفتها به، لكنّ الله تعالى حماه وحفظه، وكانت إقامته مصدر هداية، إذ استمر يلقي دروسه فيها ويعلّم الناس، إلى أن عاد الناصر بن قلاوون إلى الحكم، فأعاده إلى القاهرة، وعاد إلى درسه ووعظه، ثم ارتحل إلى دمشق بعد أن أجرى الله تعالى على يديه الخير الكثير في مصر.

ب- سجنه في دمشق:

عاد ابن تيميّة إلى دمشق، وتفرّغ للتأليف والفتوى والتدريس، والتفت إلى الأمور الفقهية، يعالجها بعد أن عالج العقيدة فيما سبق مِن حياته، وكان مما أفتى به أن الحلف بالطلاق لا يوقع الطلاق، وخالف بذلك الأئمّة الأربعة، ثم حدث عتاب ورجاء بينه وبين قضاة دمشق ألاّ يفتي هذه الفتوى، لكنه رأى ذلك كتماناً للعلم، فسجن بأمر السلطان سنة ٧٢٠ للهجرة، ومكث في السجن ما يقرب مِن ستة أشهر، ثم خرج مِن السجن، وعاد إلى سيرته: يخطب ويعظ، ويفتي، ويدوّن الكتب،

ويتصل بالناس، ويجهر بالحق، لكنّ الفئات المنحرفة والحاقدة أقض مضاجعها نشاطه الدائب، ونجاحه المستمر، والتفاف الناس حوله، فبحثت عن فتوى تحرك مشاعر الناس والحكّام ضدّه، فوجدوها في فتوى كان قد أفتاها قبل سبعة عشر عاماً بخصوص زيارة قبر الرسول ﷺ، وكان قد تحرّى فيها ما يتفق مع نهج السلف الصالح، لكنهم اتخذوها ذريعة وسجنوه سنة ٧٢٦ للهجرة.

استغل ابن تيميّة فرصة سجنه كي يتفرّغ لمناجاة ربّه، ولتدوين آرائه وللرد على مخالفيه، ويظهر أنّ هذه الآراء والردود كانت تتسرّب إلى خارج السجن، فوجد أهل السوء أنّ غايتهم لم تتحقّق كاملة مِن حبسه، فمازالوا يحاولون مع السلطان حتى أمر بسحب كل الكتب والمصنّفات وأدوات الكتابة التي كانت معه في السجن، لكنّ الأمر لم يطل إلاّ نحو خمسة أشهر، فمات عام ٧٢٨ للهجرة رحمه الله.

المحور الذي قامت عليه جهوده:

المحور الذي يلخّص شخصية ابن تيميّة وكتاباته وجهاده هو العودة بالدين إلى صفائه الذي كان عليه زمن الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله

عليهم، والتزام مذهب السلف، وهو مذهب القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بأنها خير القرون.

ونحن نستطيع أن نضرب مثلاً لاستغراق هذا المحور لأعماله بموقفه مِن ثلاث قضايا شغلت المسلمين: صفات الله عز وجل، وتوحيد العبادة، والقضاء والقدر.

أ – صفات الله عز وجل:

تعدّدت مواقف الفِرَق الإسلامية في مجال صفات الله تعالى، وقد تبنّى ابن تيميّة مذهب السلف الذي يقوم على إثبات كل ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مسنداً إلى رب العالمين، أو وصفاً لذاته العلية مع التنزيه الكامل له سبحانه، ونفي التشابه بينه عَزَّوَجَلَّ في هذه الصفات وبين أحد مِن مخلوقاته، لذلك فهو يلتزمه ولا يتعدّاه.

ب– توحيد العبادة:

يرى ابن تيميّة أنّ المسلم لا ينال صفة (المُوَحِّد) بإقراره فقط بوجود إله خالق واحد، لأنّ المشركين كانوا يقولون بهذا، ودليل ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (لقمان،٢٥)، بل لابد مِن أمرين حتى ينال صفة (الموَحِّد):

أولاً: أن يعبد الله تعالى وحده، بمعنى أن يستسلم له وحده عز وجل، ومَن أشرك في العبادة مع الله شخصاً أو شيئاً فقد أشرك بالله سبحانه.

ثانياً: أن يعبد الله تعالى بما شرعه عز وجل على لسان نبيّه محمد ﷺ.

كان ابن تيميّة يعتقد أنّ هذا مذهب السلف في التوحيد، لذلك حارب كثيراً مِن البِدَع التي كانت قد استشرت في عصره، وكان يرى أنها مخالفة للتوحيد الذي كان عليه السلف الصالح مِن هذه الأُمّة، مثل: الاستغاثة، والتوسّل بالموتى، وشدّ الرحال إلى القبور إلخ...، وقد استغرقت القضية جهوداً كبيرة، وأدّت إلى سجنه الأخير كما رأينا.

ج- القضاء والقدر:

تباعدت مواقف الفِرَق الإسلامية بخصوص القضاء والقدر، فبعضها يرى الجبر، وبعضها يرى حرية اختيار الإنسان.

وقد التزم ابن تيمية مذهب السلف الذي يقوم على ثلاثة أمور:

أولاً: أنّ الله تعالى خالق كل شيء، وأن لا شيء في الكون بغير إرادته، ولا ينازع إرادته أحد.

ثانياً: أنّ العبد فاعل حقيقة، وله مشيئة وإرادة كاملة، تجعله مسؤولاً عمّا يفعل.

ثالثاً: أنّ الله ييسر فعل الخير، ويحبه، ويرضاه، ولا يحب فعل الشر ولا يرضاه.

كيف واجه ابن تيميّة أخطاء عصره؟ وما رأيه في علومه؟

١- التصوّف:

يرى ابن تيميّة أنّ المتصوّفين تأثّروا بمناهج العقائد والعبادة عند الأُمم الأخرى، ويرى كفر عقائد التصوّف التي تقول بوحدة الوجود، أو الحلول والاتحاد [١]، وأقام الدليل على ذلك في مؤلّفاته، وأبان بأنّ الرب

---

[١] وحدة الوجود: مذهب يقول بأنّ الوجود واحد، وما التعدّد الواقع إلاّ تعدّد في شكل الوجود، لا في ذات الوجود، وأبرز القائلين بهذا المذهب (محي الدين بن عربي). والحلول مذهب يقول: بحلول العنصر الإلهي في العنصر الإنساني، =

منفصل عن العبد، ولا يمكن أن يحل الرب في العبد. كذلك أوضح استحالة ارتقاء العبد للاتحاد مع الرب. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ويرى ابن تيميّة أنّ العبادة بتعذيب الجسد وإماتة طاقاته -كما يفعل بعض المتصوّفين- لا يقرّها الإسلام، ويرى أنّ مطابقتها للسنّة شرط مِن شروط صحّتها وقبولها عند الله عَزَّوَجَلَّ.

٢- الفلسفة:

تستخدم الفلسفة العقل وحده في التوصّل إلى مختلف الحقائق الإلهية، مثل: صفات الله عَزَّوَجَلَّ، وحقيقة صفاته عَزَّوَجَلَّ، وحقيقة النبوّة إلخ...

وقد كانت الفلسفة اليونانية أبرز الفلسفات التي احتك المسلمون بها، ونقلوا عنها. وقد حاول فلاسفة المسلمين مثل: ابن سينا، والفارابي، والكندي، وابن رشد إلخ... أن يوفّقوا بين ما جاء به الإسلام وما طرحته

= وأبرز مَن نادى بهذا المذهب (الحلاّج). والاتحاد: مذهب يقوم على اتحاد المخلوق بالخالق عن طريق المحبّة، ومِن أبرز القائلين بهذا المذهب (ابن الفارض).

الفلسفة اليونانية.

أبان ابن تيميّة في مؤلّفاته ضلال الفلسفة اليونانية في مجال الإلهيّات، وصوابها في مجال الطبيعيّات، وأوضح خطأ محاولة التوفيق التي سعى إليها فلاسفة المسلمين في مجال الإلهيّات وعدم جدواها، وأنهم تعبوا وأتعبوا، وأظهر الكفر الذي وقع فيه بعضهم.

٣- المنطق:

ترجم المسلمون منطق أرسطو، وفُتن به بعضهم، حتى جاء عالم مثل (أبي حامد الغزالي) واعتبره مقدّمة العلوم كلها، واعتبر مَن لا يحيط به لا ثقة بعلومه أصلاً [١].

ألّف ابن تيميّة عدّة مؤلّفات في تفنيد المنطق، أبرزها (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)، وحاول في كتابته تلك أن يهدم منطق أرسطو، مُبيّناً عجزه في مجال المعرفة الإنسانية، لأنه يجعل الإنسان محبوس العقل واللسان.

---

(١) الغزالي، المستصفى (١/١٠).

واعتبر ابن تيميّة أنّ المعرفة الإنسانية تتكوّن مِن المشاهدة الحسيّة القائمة على التجربة والتكرار المقترنة بالإدراك العقلي، واعتبر أنّ القرآن الكريم يربّي العقل التربية الصحيحة، وينشّأه على المحاكمة السليمة، وأنّ الله تعالى أنزل مع الأنبياء المناهج والأصول التي تُربّي عقول الناس رحمة بهم، واستشهد على ذلك بآيتين مِن القرآن الكريم هما:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد،٢٥)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ (الشورى،١٧)

وفسّر الميزان بأنه جملة أحكام كان يبعثها الله تعالى مع رسله، تُربّي العقل البشري، وتجعله يأخذ مساراً صحيحاً بعيداً عن اجتهادات البشر القاصرة المحدودة.

٤- علم الكلام:

المعتزلة أول مَن استخدم علم الكلام في إثبات العقائد، وهو في أصوله منقول عن الفلسفة اليونانية، وقد وقف أئمّة أهل السنّة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل في وجهه وحاربوه، وكان أبو الحسن الأشعري

أول مَن استخدمه في الدفاع عن معتقدات أهل السنّة بعد تحوّله مِن مذهب الاعتزال إلى مذهب أهل السنّة، ثم ترسّخ استخدامه على يد أتباعه مثل: الباقلاّني، وإمام الحرمين الجُوَيْني، والرازي إلخ...

حارب ابن تيميّة علم الكلام وإفرازاته إنسجاماً مع منهجه الذي سار عليه وهو الاكتفاء بأدلّة القرآن الكريم وبراهينه في إثبات حقائق الدين أو الدفاع عنها، لذلك هاجم الأشاعرة في الفتوى الحَمَويّة الكبرى (جواب سؤال وردّه مِن أهل حماة)، وانتقد تأويلهم للآيات مثل: استوى على العرش، يد الله، وجه الله، لأنه لم يعرفه السلف الصالح الذين أخذنا الدين عنهم، وكان يُفترض أن يسعنا ما وسعهم.

٥- الجمود المذهبي:

وُلد ابن تيميّة في عصر استشرى فيه تعصّب الفقيه لمذهبه وإمامه، وقد نشأ حنبلي المذهب، وكانت أسرته حنبلية، وأتمّ كتاباً في الفقه الحنبلي بدأه جدّه وعمل فيه أبوه، وكان يرى أنّ مذهب الإمام أحمد أمثل المذاهب وأقربها للسنّة، ولكنه كان لا يتعصّب للإمام أحمد شخصياً، بل كان يحترم الأئمّة الآخرين، ويعذرهم في اجتهاداتهم المخالفة للإمام أحمد، وألّف كتاباً حول هذا الموضوع سمّاه (رفع الملام عن الأئمّة الأعلام)، وكان

لا يتعصّب لمذهبه، بل يوصي الفقيه المحقّق ألاّ يلتزم مذهباً معيّناً إذا وجد الحق في غيره، وأن يترك المذاهب كلها إذا وجد حديثاً يخالفها، وهذا ما قام به في بعض المسائل مثل: اعتبار الطلقات الثلاث في المجلس الواحد طلقة واحدة، وفي أيمان الطلاق، لأنه كان يعتبر نفسه مسوقاً وراء الدليل الأقوى.

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها مِن استعراضنا لشخصية ابن تيميّة أنه يجسّد الطائفة الظاهرة خير تجسيد، فقد أكمل النقص الذي قصّر فيه الولاة والحكّام مِن مجاهدة التتار، ومِن محاربة الطوائف الباطنية كالنُّصَيْرِيَّة، كما وضّح الأخطاء التي استشرت في عصره، وحاربها بالصدع بالحق وبالدعوة إليه سواء أكانت في مجال العبادة، أم في مجال التصوّف، أم في مجال تداخل الفلسفة والمنطق مع علوم المسلمين، أم في مجال التعصّب المذهبي.

إذن كان ابن تيميّة العالم العامل المجاهد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر المسدّد لمسيرة الأُمّة المصوّب لها، الراتق لكل الفتوق.

رحمك الله يا ابن تيميّة، فقد كنت طائفة ظاهرة وليس رجلاً في طائفة !!



لقد كان دور العلماء هو الدور الأبرز في الطائفة الظاهرة، وكان الأهم في تسديد مسيرة الأُمّة، فما هي المواصفات التي يمكن أن نستخلصها مِن سِيَرِهم لتكون نبراساً للدعاة في العصر الحاضر؟ وما هي السمات التي يمكن أن نستقرأها مِن تصرّفاتهم لتكون مقياساً وميزاناً يقيس ويزن علماء عصرنا تصرّفاتهم وأعمالهم بها؟

الفصل الخامس

أبرز صفات علماء الطائفة الظاهرة



أولاً :

مقدمتان في أهمية العلم والعلماء

قبل أن أنتقل إلى استخلاص أبرز صفات علماء الطائفة الظاهرة سأذكر مقدّمتين يفرضهما المقام وهما:

١- أهمية العلم في الدين الإسلامي.

٢- أهمية العلماء في الدين الإسلامي.

فإلى هاتين المقدّمتين:

١- أهمية العلم في الدين الإسلامي:

لقد حث الإسلام المسلم على العلم، وأجزل مثوبة العالم، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنّة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنّ العالِم ليستغفر له مَن في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء، وإنّ فضل العالِم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا

درهماً، إنما ورّثوا العلم، فمَن أخذه أخذ بحظ وافر"[1].

وأجزل مثوبة الذين يتدارسون كتاب الله ويتذاكرونه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "... وما اجتمع قوم في بيت مِن بيوت الله يتلون كتاب الله إلاّ غشيتهم الرحمة، وحفّتهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده"[2].

وكانت أول آية نزلت على محمد ﷺ قول جبريل له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾ (العلق)

وقد امتدح القرآن القلم الذي هو أداة الكتابة فقال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾﴾ (القلم)، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾ (طه)

---

(١) رواه أبو داود والترمذي. انظر رياض الصالحين بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني رقم (١٣٩٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٨/٧١).

وحث الإسلام على التدبّر فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد)

وحث على التفكّر فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الزمر)

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾
(آل عمران)

إنّ هذا الحث على التفكّر والتدبّر أنتج علوماً في كل مجال حول القرآن الكريم وحول الحديث الشريف وحول اللغة العربية، فلابد للعالِم المسلم أن يُلم بكل هذه العلوم، وأن يُلم بأحكام الإسلام.

٢- أهمية العلماء في الدين الإسلامي:

وقد أعلى الإسلام شأن العلماء ومرتبتهم، فقد قال الرسول ﷺ:

"إنّ العلماء ورثة الأنبياء" [1]، وقد أثنى الإسلام على العلماء فقال تعالى:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ (المجادلة،١١)، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ (آل عمران،١٨)، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ (فاطر،٢٨).

وقد أورد الشاطبي في كتاب "الموافقات" فقرة تحت عنوان (المفتي قائم في الأُمّة مقام النبي ﷺ)، وهي ذات ارتباط بموضوعنا، وتبيّن أهمية العلماء في حفظ الدين ونقله، ودلّل الشاطبي على ذلك فقال:

"والدليل على ذلك أمور:

أحدها: النقل الشرعي في الحديث: "إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وأنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم" [2]. وفي الصحيح: "بينا أنا نائم أُتيت بقدح مِن لبن فشربت حتى إني لأرى الري يخرج مِن أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال:

---

(١) سبق تخريجه ص ١٥٩.

(٢) سبق تخريجه ص ١٥٩.

العلم" [1]. وهو في معنى الميراث. وبُعث النبي ﷺ نذيراً؛ لقوله: (إنما أنت نذير) (هود،١٢). وقال في العلماء: (فلولا نفر مِن كل فِرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم) (التوبة،١٢٢)، وأشباه ذلك.

والثاني: أنه نائب عنه في تبليغ الأحكام؛ لقوله: "ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب" [2]. وقال: "بلّغوا عني ولو آية" [3]. وقال: "تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يَسمع منكم" [4]. وإذا كان كذلك فهو معنى كونه قائماً مقام النبي.

والثالث: أنّ المفتي شارع مِن وجه؛ لأنّ ما يبلّغه مِن الشريعة إمّا منقول عن صاحبها، وإمّا مُستنبط مِن المنقول. فالأول يكون فيه مُبلّغًا، والثاني يكون فيه قائماً مقامه في إنشاء الأحكام؛ وإنشاءُ الأحكام إنما هو

---

[1] صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب اللبن (٣٩٣/١٢).

[2] صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ليبلّغ العلم الشاهد الغائب (١٩٩/١).

[3] صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني اسرائيل (٤٩٦/٦).

[4] سنن أبي داود، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٣٦٥٩).

للشارع. فإذا كان للمجتهد إنشاء الأحكام بحسب نظره واجتهاده فهو مِن هذا الوجه شارع واجب اتباعه والعمل على وفق ما قاله، وهذه هي الخلافة على التحقيق، بل القسم الذى هو فيه مُبلّغ لابد مِن نظره فيه مِن جهة فهم المعاني مِن الألفاظ الشرعية، ومِن جهة تحقيق مناطها وتنزيلها على الأحكام، وكلا الأمرين راجع إليه فيها، فقد قام مقام الشارع أيضاً في هذا المعنى، وقد جاء في الحديث: "أنّ مَن قرأ القرآن فقد أُدرجت النبوّة بين جنبيه" [١].

وعلى الجملة فالمفتي مُخبِر عن الله كالنبي، ومُوقع للشريعة على أفعال المكلّفين بحسب نظره كالنبي، ونافذ أمره في الأُمّة بمنشور الخلافة كالنبي، ولذلك سُمُّوا أولى الأمر، وقُرنت طاعتهم بطاعة الله ورسوله في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (النساء،٩٥) والأدلّة على هذا المعنى كثيرة" [٢].

(١) ضعّفه الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الضعيفة حديث رقم (٥١١٨).

(٢) الشاطبي، الموافقات (٤/٢٤٤).

ثانياً:



صفات العلماء

والآن على ضوء ذلك: ما هي أبرز مواصفات العالِم كما يمكن أن نستخلصها مِن صفات علمائنا على مدار التاريخ الإسلامي؟

أبرز مواصفات علمائنا على مدار التاريخ الإسلامي هي:

١- أنهم كانوا ربّانيين:

إنّ أول شيء يستشفّه الدارس لمسيرة هؤلاء العلماء الأطهار الأبرار هي أنّ نفوسهم كانت خالصة لله وحده، وكانت في منتهى التقوى والإخبات والإنابة له تعالى وحده، وكانت قلوبهم مملوءة بحب الله وتعظيمه والخضوع له ومراقبته والخشية منه تعالى وحده، وكانت حياتهم مملوءة بالحرص على العبادة، وتمتين الصلة بالله، وكان سلوكهم قائماً على الأخذ بالحلال والابتعاد عن الحرام والشبهات في كل ما يتعلّق بذواتهم وأُسرهم، وكانت أخلاقهم مَبْنيّة على التضحية والعطاء والالتزام بكل ما ورد في القرآن الكريم والسنّة المشرّفة، لذلك كان إمامهم الرسول ﷺ وأُسوتهم وقُدْوتهم في كل تفصيلات حياتهم وجزئيّاتها. إنّ هذا البناء النفسي العظيم

الـذي قامـت عليـه شخصـياتهم والـذي تعبـوا في السـهر عليـه وفي إقامتـه جعلهـم ربّانيين، بمعنى أنّ الحق هـو مدار حياتهم، وهـو الـذي يصدعون به مهما كان الثمن الذي يدفعونه، فنجد:

أنّ عمر بن عبدالعزيز صدع بهذا الحق في وجه الوليد بن عبدالملك عندما أراد أن يغيّر ولاية العهد مِن سليمان بن عبدالملك إلى ابنه، ورفض موافقته على تصرّفه مما أدّى إلى عزله عن ولاية المدينة وتخفّيه في السويداء، ثم صدع بالحق ثانية عندما تولّى الخلافة وأعاد الأموال المأخوذة بغير حق إلى بيـت مـال المسـلمين ولم يأبـه لغضـب رجـالات بـني أُمَيَّـة، لـيس هـذا فحسـب بـل سـار سيرة غاية في العـدل في كـل شؤون الخلافة مع الـولاة، ومع الرعية، ومع أهـل الذمّـة، ومع أهـل بيتـه، ومع أولاده، وأعـاد الشـورى إلى سـابق عهـدها. وهـو بهـذه السـيرة أعـاد مـا انـدرس مِـن معـالم الخلافـة الإسلامية وجعله يأخذ بحق لقب (الخليفة الراشد الخامس)، ويأخذ وصف مُجدّد القرن الأول الهجري.

وكـذلك نجـد الشـافعي يصـدع بـالحق ويعلـن مآخـذه علـى مالـك وتلاميذه في عدم أخذهم بأحاديث الآحاد، يعلن ذلك في كتاب (الأُم) في فصل يسمّى (اختلاف مالك)، يصدع بالحق مع أنه تلميذ لمالك يقر

بفضله عليه، ومع أنّ مذهب مالك كان راسخاً في المغرب والقول في مالك له عواقبه الكثيرة، لكنّ الصدع بالحق أولى مهما كانت النتائج والمآلات، وهذا ما يفعله الربّانيون، الذين عرفوا الحق وتشرّبته نفوسهم العظيمة.

أمّا أحمد بن حنبل فالربّانية تتجلّى في كل مراحل حياته، ففي شبابه اتجه إلى جمع حديث رسول الله ﷺ، واتجه في الوقت نفسه إلى تطبيق سنّة الرسول ﷺ في كل جزئيّات حياته، وكان لا يترك سنّة إلاّ واجتهد في تطبيقها، وفي كهولته برزت فتنة القول بخَلْق القرآن على يد الوزير، وهدّد المأمون كل مَن لا يقول بخَلْق القرآن، وطلب مِن وزيره أن يحضره إليه مكبّلاً إلى ثغره الذي يقاتل فيه، وتراجع مَن تراجع مِن العلماء عن قول كلمة الحق، ولكنّ أحمد بن حنبل صدع بكلمة الحق وتعرّض نتيجة لذلك للعذاب والتنكيل والسجن والإيذاء، ومع ذلك ثبت على القول بأنّ القرآن كلام الله ليس بمخلوق، لأنه هذا الحق الذي يؤمن به، ولأنه ربّاني يخشى عذاب الله ولا يخشى عذاب المخلوقين، ويتطلّع إلى رضوان الله ولا يتطلّع إلى رضا البشر الفانين، وفي شيخوخته أقبلت عليه الدنيا وذاع صيته وسعى إليه الخليفة والولاة، وأغدقوا عليه الأموال، وفتحوا له أبواب كل شيء، وربما كان هذا امتحاناً لربّانيته أقسى مِن الامتحان

السابق، لكنه صمد للإغراء ولم يرض أن يأخذ شيئاً مما عرض عليه، وقاطع ابنه لأنه رضي أن يأخذ أموالاً مِن الخليفة، فالخلافة بعد أن يئست مِن الأب حاولت مع الإبن، لكنّ الأب عاقب الإبن بأن امتنع عن الأكل مِن عنده، فأحمد بن حنبل كان ربّانياً في شيخوخته كما كان ربّانياً في كهولته وشبابه.

أمّا ابن تيميّة فالمواقف التي تشهد على ربّانيته وصدعه بالحق أكثر مِن أن تحصى، فقد أصر على القول بعدم تأويل صفات الله، وأنّ هذا هو قول الله سبحانه وتعالى وقول الرسول ﷺ وقول السلف الصالح، وتحدّى خصومه وأعطاهم فرصة طويلة مِن الزمن كي يأتوا بما هو مخالف لما يقوله ويعلنه، ثم دخل السجن نتيجة لصدعه بالحق، وعرضوا عليه أن يخرج مِن السجن شريطة تراجعه عن بعض ما يعتقده فرفض ذلك. كذلك صدع بالحق فيما يتعلّق بحكم الحلف بالطلاق وأنه لا يوقع الطلاق، ورجاه أصدقاؤه ألاّ يُفتي بذلك، ولكنه أبى مهما كان الثمن الذي يدفعه، لأنه رأى عدم الإفتاء كتماناً للعلم، وكان الثمن السجن الذي مات فيه ليخرج مِن هناك إلى قبره. وهناك مجالات أخرى صدع ابن تيميّة فيها بالحق وكان االثمن مواجهة وسِجالاً وكتابة ومنها: صدعه بالحق في مواجهة التتار، والصوفيّة، والباطنية، وأصحاب المنطق والفلسفة إلخ...

٢- أنهم كانوا محيطين بالعلوم الإسلامية ومتبحّرين في بعضها:

إنّ الصفة الثانية التي نلمسها في علماء الطائفة الظاهرة السابقين هي إحاطتهم بالعلوم الإسلامية، كعلوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم اللغة العربية والفقه والسيرة.

فقد ذَكَرَت كتب السِّيَر أنّ عمر بن عبدالعزيز طلب العلم في المدينة المنوّرة شاباً يافعاً، فبرع فيه ونبغ، فحفظ القرآن ودرس الحديث وحفظه ورواه، فقد حدّث عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وعن عدد مِن أعلام التابعين: فحدّث عن عبدالله بن جعفر وعن أنس بن مالك وأبي بكر بن عبدالرحمن وعُبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، ولم يكن بمنزلة ابن عتبة هذا في نفس عمر غير القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وقد ترك ابن عتبة أثراً بالغاً في نفس عمر طيلة حياته. وروى الحديث عن كثيرين غير هؤلاء مِن الأعلام منهم -كما يذكر ابن الجوزي- خاله عبدالله بن عمر وعبدالعزيز بن مروان (أبيه) وعمر بن أبي سلمة والسائب ويوسف بن عبدالله بن سلام وعبادة بن الصامت وتميم الداري والمغيرة بن شعبة وغيرهم.

وقد بلغ عمر رتبة عالية في الفقه، قال ميمون بن مهران: "أتينا

عمر فظننا أنه يحتاج إلينا فإذا نحن تلاميذه".

ولما قدم أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ مِن العراق إلى المدينة، كانت تعجبه صلاة عمر بن عبدالعزيز، وكان عمر أميرها فصلّى أنس خلفه فقال: "ما صلّيت خلف إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ مِن إمامكم هذا". وكان عمر بن عبدالعزيز يتم الركوع والسجود ويخفّف القعود والقيام.

صورة الشافعي العلمية لا تقل إشراقاً عن سابقة عمر بن عبدالعزيز، فهو قد حفظ القرآن وهو صغير، ثم ارتحل إلى البادية مِن أجل استكمال مَلَكَة الفصاحة، فتمكّن في اللغة العربية، لذلك كان بيانه فيما كتب أفصح بيان وأبلغه، ثم ارتحل إلى المدينة وتتلمذ على يدي مالك بن أنس، فدرس الموَطّأ فاستوعب فقه الحجازيين، ثم انتقل إلى العراق وصَحِب محمد بن الحسن الشيباني، واستوعب فقه العراقيين، وحمل معه إلى مكّة وِقْر بعير مِن الكتب.

أمّا أحمد بن حنبل فقد تتلمذ على مشايخ بغداد، واشتغل في الحديث فجمع أكبر كتاب حديث وهو (مسند أحمد بن حنبل)، كما

استفاد مِن تنقّلاته بأن التقى بعلماء عصره في مدن العالَم الإسلامي الكبرى في مكّة والمدينة واليمن، وكان لقاؤه بالشافعي في مكّة واستماعه إليه وإعجابه بما يقول فاتحة خير له.

أمّا ابن تيميّة فثقافته الإسلامية الموسوعية التي شملت كل المجالات مِن قرآن وحديث وفقه وأصول فقه وسيرة وتاريخ وطوائف وفِرَق إسلامية وغير إسلامية أوضح مِن أن يفصّل فيها أو يقدّم الدليل عليها.

٣- أنهم كانوا مبدعين في مجال أو أكثر من مجالات العلوم الإسلامية:

إنّ علماء الأُمّة الإسلامية لم يكونوا مستوعبين فقط للعلوم الإسلامية، بل كانوا مبدعين كل واحد في مجال مِن المجالات العلمية، وهو ما استحقّوا مِن أجله لقب (علماء).

فقد أشار عمر بن عبدالعزيز على علماء عصره أن يجمعوا السنّة وأحاديث الرسول ﷺ، وأن يبدأوا بتدوين العلوم الإسلامية مِن سيرة وتاريخ وغزوات، وقد أعطاهم بعض القواعد التي يمكن أن يستأنسوا بها في كل المجالات.

أمّا الشافعي رحمه الله فقد أبدع علماً بكامله هو علم أصول الفقه.

أمّا أحمد بن حنبل فقد رسّخ أصول أهل السنّة في ثلاثة مجالات: في مجال العبادة فوضع كتاب (الزهد)، وفي مجال الحديث فوضع (المسند)، وفي مجال الرد على الفِرَق المنحرفة القائلة بخَلْق القرآن وتعطيل الصفات فوضع (رسالة الردعلى الزنادقة والجُهْمِيَّة).

أمّا ابن تيميّة فقد أبدع أكثر مِن غيره وفي مجالات مختلفة، وكان أبرزها تدعيمه للقياس الأصولي في وجه القياس المنطقي الذي استشرت فتنته بين المسلمين بما كتبه مِن ردود على منطق أرسطو، وتبيان فساده وتوضيح أنه لا يفيد علماً، والتوضيح في الوقت نفسه أنّ القياس الأصولي الذي وضعه المسلمون أقرب إلى الموضوعية والمنهجية وإفادة العلم مِن القياس المنطقي.

٤- أنهم كانوا مرتبطين بقضايا الأمّة الرئيسية:

إننا نجد أنّ علماء الطائفة الظاهرة قد أحسّوا بالأخطار المحيطة بالأُمّة، واستشرفوا بعض الأخطار الأخرى قبل أن تستكمل دائرتها، لذلك نجد أنهم واجهوا الأخطار بعلمهم وأقلامهم وأجسامهم، وتعرّضوا للسجن

والتعذيب والإيذاء، وقدّموا مثلاً رائعاً في البذل والتضحية.

فعمر بن عبدالعزيز قد أحس خطر ابتعاد الخلافة الإسلامية على الأُمّة في عدّة أمور منها: افتقاد العدل في الأموال بين المسلمين، وتفشّي عدم المساواة بين رعيّة الخلافة، والابتعاد عن الشورى في أمور تحديد خليفة المسلمين، لذلك عندما سيقت الخلافة له سار فيها على نهج يخالف مَن قبله، واجتهد في إرساء قواعد جديدة أعادت نهج الخلافة الراشدة، فأقام العدل بين المسلمين، وأعاد ما أُخِذ بغير حق، وأنصف المظلومين، ورفع الجزية عن أهل الذمّة الذين دخلوا الإسلام، وأراد أن يعيد الخلافة إلى سابق أُسسها وركائزها التي تقوم على أنّ الخليفة هو مَن يختاره المسلمون، لذلك كان السُّم هو الجزاء الذي ينتظره [1]، وكانت حياته ثمناً لدرء هذه الأخطار.

وقد استشعر الشافعي خطر الصراع بين مدرستَيْ الرأي والحديث على الأُمّة، كما استشرف اضطراب الساحة الفقهية وأخطار ذلك على الأُمّة وفي عدّة مجالات منها: الاجتهاد، والتعامل مع النص القرآني

---

(١) انظر تفصيل هذه الإصلاحات وترجيحه لنهايته في كتاب (ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) للدكتور عماد الدين خليل.

والحديثي، فقنّن هذه الأمور، فوضع أصول القياس، كما بيّن أصول استنباط المعنى مِن النص القرآني والحديثي، وكانت النتيجة أن ابتدع علماً جديداً هو (علم أصول الفقه)، وهو علم خاص بالأُمّة الإسلامية ليس له مثيل لدى الأُمم الأخرى، إنما تحاول بعض الأُمم الآن في العصر الحديث أن تستنبت مثل هذا العلم في بيئتها ومجالها القانوني.

أمّا أحمد بن حنبل فقد استشرف خطر الجُهْمِيَّة والزنادقة وخطر القول بخَلْق القرآن على الأُمّة، كما شعر بخطر التصوّف، لذلك تصدّى لهذين الخطرين، وأرسى أصولاً في المجالين، ودافع بقلمه وجسده عن الحق التزاماً بقضايا الأُمّة.

أمّا ابن تيميّة فقد استشعر أخطاراً متعدّدة على الأُمّة منها: خطر التتار، وخطر المتصوّفة، وخطر الفِرَق الباطنية، وخطر التعصّب المذهبي، فتصدّى لكل هذه الأخطار ووضّحها، وبيّن أبعادها وحذّر الأُمّة منها.

٥- أنهم كانوا فاهمين للواقع المحيط بهم فهماً تفصيليّاً [(١)]:

إنّ فهم علماء الطائفة الظاهرة للواقع المحيط بصورة مفصّلة سمة واضحة في شخصيّاتهم.

فقد أدرك عمر بن عبدالعزيز الواقع المحيط به، كما أدرك جهود الوضّاعين، وبذور الفِرَق المنحرفة مِن قول بالقدر والإرجاء وخطورة تلك الأقوال، إنّ فهمه لهذا الواقع هو الذي جعله يوجّه العلماء المخلصين إلى تدوين الحديث الشريف وتدوين الإرث الثقافي الذي أصبح فيما بعد إرثاً ثقافياً خاصاً بأهل السنّة.

أدرك الشافعي الواقع المحيط به، فعرف اضطراب الساحة الفقهية وانقسامها بين فقه الرأي وفقه الحديث، وبين فقه عراقي وفقه حجازي، كما أنه عرف الفِرَق الضالة المنحرفة التي بدأت تطل بقرنها مِن فرقة تقول

---

(١) إنّ العالِم المعاصر يُفترض فيه قياساً على علماء أُمّتنا السابقين أن يكون عالِماً بالفِرَق المحيطة به وبأصولها وعقائدها ومخطّطاتها، وعالِماً بتطوّرات أوضاع الأُمّة الإسلامية وأسباب هذه التطوّرات والعوامل المحدِثة لها، وعالِماً بالحضارة الغربية ومناهج البحث فيها، والتيارات السائدة فيها، والمسارات التي تحكمها، والفلاسفة الذين يقودونها إلخ...

بالقدر وفرقة تقول بتعطيل الصفات وعلم الكلام، ويذكر المؤرّخون لسيرته أنه اطلع على علم الكلام وتبحّر فيه مِن أجل مواجهة تلك الفِرَق، وتنقل أيضاً أنه ناقش بعض رؤوس تلك الفِرَق ومِن أبرزها حفص الفرد وبِشر المريسي.

لذلك جاءت فتاويه قاسية بحقّهم لأنه عرف مدى الضلال الذي وقعوا فيه، فقد جاء في إحداها حيث قال: "حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء مَن ترك الكتاب والسنّة وأخذ في الكلام.

إنّ هذه الرؤية الدقيقة للواقع هي التي جعلته يعطي آراء سديدة سليمة في مجالات متعدّدة.

كذلك كان اطلاع أحمد بن حنبل ﵀ على واقعه اطلاعاً وافياً وتفصيليّاً، عرف التصوّف وبداياته، وعرف علم الكلام وأقواله، وعرف الشيعة، وعرف الزندقة، لذلك كان موقفه مِن الأشخاص والفِرَق حسب قُربهم وبُعدهم مِن الحق الذي آمن به، وردّ على الزنادقة والجُهْمِيَّة، وكتب كتاب (الزهد)، وجمع (المسند) وفعل ذلك علاجاً لواقع كان مطّلعاً عليه اطلاعاً تفصيليّاً.

أمّا ابن تيميّة فقد كان عارفاً معرفة تفصيلية بالواقع المحيط به، فقد كـان يعـرف المتصـوّفة والباطنيـة ورجـالاتهم، والفلسـفة والفلاسـفة واختلافاتهم، كما كان مطّلعاً على أوضاع التتار، كما كان عارفاً بالفِرَق الإسلامية، وربما كانت هذه المعرفة التفصيلية إحدى ميّزاته التي جعلته يترك آثاراً أكثر مِن غيره في مسار الأُمّة.



والآن: اتضح معنا مِن خلال الصفحات الماضية أنّ الإسلام أوجب على المسلم أن ينتمي إلى جماعة مسلمة وفرض عليه ذلك، وأبرزت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ذلك، وقد ابتدأ الرسول ﷺ بناء هذه الجماعة في مكّة ثم استكمله في المدينة، وأصبحت جماعة المسلمين هي الجماعة التي يجب أن ينتمي إليها المسلم على مدار التاريخ الإسلامي، كما أصبح إمامها هو الخليفة الذي يجب أن يبايعه المسلم، وكانت الطائفة الظاهرة موجودة على مدار التاريخ تسدّد تقصير الخليفة، وتجبر نقصه، وتحفظ للأُمّة كيانها وفاعليتها.

والآن بعد أن أُبعد الشرع الإسلامي عن الحُكم، وسقطت الخلافة، وذهب الخليفة بذهابها، فما الحُكم الشرعي الذي يجب على المسلم نحو الجماعة؟ هل يسقط هذا الواجب بسقوط الخليفة وذهاب الخلافة؟ وإذا كان لا يسقط فكيف يمكن أن يتحقّق هذا الواجب؟

الفصل السادس

الموقف من الجماعة في العصر الحاضر



أولاً :

وجوب الجماعة في العصر الحاضر والأدلة على ذلك [١]

---

(١) ألّف الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد كتاباً سمّاه (حُكم الانتماء إلى الفِرَق والأحزاب والجماعات الإسلامية)، وقد أوضح أنّ هناك حالات ثلاث يمر المسلم فيها، الأولى: المسلم في ولاية إسلامية وهناك حُكم بالإسلام، وهناك جماعة المسلمين، فهذه لا يجوز تشكيل جماعة أو حزب فيها، الثانية: المسلم في ولاية ليست إسلامية وليس هناك حُكم بالإسلام، وليس هناك إمام للمسلمين، فيدعوه إلى اعتزال جميع الفِرَق والأحزاب الإسلامية وغير الإسلامية، الثالثة: المسلم في دار مِن ديار الكفر، فيبيح له الالتقاء مع إخوانه الآخرين في جماعة. هذه هي الحالات الثلاثة التي يتصوّر الشيخ بكر إمكان حدوثها مع المسلم، ومع سلامة حكمه في الحالتين الأولى والثالثة والاتفاق معه فيهما إلاّ أنّ الشيخ بكر لم يقدّم الأدلّة الشرعية التي تجعله لا يجيز تشكيل جماعة تجمع المسلمين على منهاج الإسلام ورسم النبوّة، ويكون ولاؤها وبراؤها لله ورسوله وليس القيام لحزبها وجماعتها، وتدعم الخير الموجود في حياة المسلمين، وتعينهم على الواجبات المفروضة عليهم، وتسعى إلى استكمال الفروض والواجبات الناقصة في كيانهم، لماذا لا يجيز مثل هذه الجماعة؟ ولماذا يمنع انتماء المسلم إليها؟

الحقيقة إنّ الشيخ لم يقدّم أدلّة تعضد وجهة نظره بل اكتفى بتقرير الحقيقة السابقة، وتكلّم في موضوعين آخرين هما: جماعة المسلمين والحزبية، وإن كان =

إنّ الواجب الذي أوجبه الإسلام يبقى واجباً إلى قيام الساعة، ولا يمكن لأحد كائناً مَن كان أن يغيّر وجوب الواجب في الإسلام، ولا يسقط الواجب بذهاب الخليفة والخلافة، فالزكاة مثلاً لا تسقط عن المسلم بذهاب الخليفة بل عليه أن يخرجها إن استحقّت عليه في نفس الوجوه التي شرعها الإسلام، ولكن عليه أن يجتهد في إيصالها لمستحقّيها في حين أنه كان يجب أن يعطيها للخليفة الذي كان بدوره يوصلها إلى مستحقّيها، وقد أكّد هذا المعنى الجُوَيني في كتابه (غِياث الأُمم) في فتوى صريحة له تؤكّد إن خلو الزمان مِن إمام يوجب على المسلمين العودة إلى علمائهم يقول الجُوَيني: "فإذا شغر الزمان عن الإمام وخلا عن سلطان ذي نجدة وكفاية ودراية فالأمور موكلة إلى العلماء، وحق على الخلائق على اختلاف طبقاتهم أن يرجعوا إلى علمائهم، ويصدروا في جميع الولايات عن رأيهم، فإن فعلوا ذلك فقد هُدوا إلى سواء السبيل، وصار علماء البلاد ولاة

= كلامه طيّباً ومفيداً في هذين الموضوعين إلاّ أنه لم يعالِج المشكلة في صورتها المعاصرة. ومِن المناسب الإشارة إلى أنّ الدكتور صلاح الصاوي ألّف كتاباً سمّاه (مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية) خصّصه للرد على الشيخ بكر عبد الله أبي زيد وتفنيد وجهات نظره.

العبـاد"، ويقـول: "وإذا لم يصـادف النـاس قوّامـاً بـأمورهم يلـوذون بـه فيستحيل أن يُأمروا بالقعود عمّا يقدرون عليه مِن دفع الفساد، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن عمّ الفساد البلاد والعباد"، وقال: "وقد قال بعض العلماء: لو خلا الزمان مِن السلطان فحق على قطّان كل بلدة وسكّان كل قرية أن يقدّموا مِن ذوي الأحلام والنُّهى وذوي العقول والحِجا مَن يلتزمون امتثال إشارته وأوامره وينتهون عن مناهيه ومزاجره، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك تردّدوا عن إلمام المهمّات، وتبلّدوا عند إضلال الواقعات".

إذن يبقى حكم الانتماء إلى جماعة واجباً على المسلم [1]، لكنّ السؤال الذي يرِد الآن هو: مَن هي الجماعة التي يجب أن يؤدّي المسلم مِن خلالها هذا الأمر الواجب عليه؟

---

(1) إنّ الإسلام الذي أوجب على المسلم أن يكون في جماعة أوجد له تلك الجماعة، وإن لم يفعل ذلك فإنه يكون كلّفه بما لا يطاق وهذا مُحال في حق الشريعة السمحة، فعندما يكون الإمام موجوداً والخلافة قائمة تكون جماعة المسلمين هي تلك الجماعة، وعندما لا يكون هناك إمام تكون الطائفة الظاهرة هي تلك الجماعة التي ينتسب المسلم إليها.

ليس مِن شك بأنّ الجماعة التي يجب أن يؤدّي هذا الواجب مِن خلالها هي جماعة الطائفة الظاهرة.

فما هي أبرز صفاتها التي يجب أن تتصف بها؟ وما أهم المزايا التي يجب أن تتزيّا بها في الوقت الحاضر؟ وما هي الصورة التي يجب أن تكون عليها على ضوء فهمنا للشرع الإسلامي وللواقع المعاصر؟ وما هي أهم الواجبات التي يجب أن تقوم بها في وقتنا الحالي؟

ثانياً:

أبرز صفات جماعة الطائفة الظاهرة في عصرنا [١]

(١) في الكتاب الذي أشرت إليه قبل قليل وهو (مدى شرعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية) والذي ألّفه الدكتور صلاح الصاوي في الرد على الشيخ بكر أبي زيد في كتابه المعنون (حُكم الانتماء إلى الفِرَق والأحزاب والجماعات الإسلامية) تعرّض الدكتور الصاوي للجماعات الإسلامية المعاصرة، وهو وإن حالفه الحظ في الرد على الشيخ بكر في إقراره بمشروعية الانتماء إلى الأحزاب والجماعات الإسلامية إلاّ أنه خالفه الصواب في بعض الأحيان في موقفه مِن الجماعات الإسلامية المعاصرة، وأبرز المواضع التي خالفه الصواب فيها هي:

الأول: تقريره سلامة أصول الجماعات الإسلامية المعاصرة جميعها.

الثاني: اعتباره أنّ جميع الجماعات الإسلامية المعاصرة خطوة مرحلية إلى جماعة المسلمين.

الثالث: تهوينه مِن شأن الخلافات بين الجماعات الإسلامية المعاصرة.

والواضح أنّ الدكتور يتعامل بحسن الظن مع الجماعات الإسلامية، والحقيقة أنّ واقع بعض الجماعات الإسلامية يخالف ما ذهب إليه الدكتور الصاوي، ففي خصوص الأمر الأول نجد أنّ بعضها لم تع التوحيد ولم تبرزه في منهجها، فكيف تكون إذن سليمة الأصول؟ =

١- تلتزم بالكتاب والسنّة وتتعامل معهما كما تعامل السلف الصالح معهما، وتلتزم عقيدة أهل السنّة والجماعة، وتوالي الأشخاص والجماعات وتتبرّأ منهم حسب قُربهم وبُعدهم مِن الحق والتزامهم به.

كما تأخذ بالوسائل التي انفرزت على مدار التاريخ لفهم النص وهي: أصول الفقه واللغة العربية ومقاصد الشريعة، كما تلتزم الأخذ بالمصطلحات الحديثية بالصورة التي تبلورت عليها في المرحلة الماضية مِن تاريخ أُمّتنا.

٢- يقودها عالِم أو علماء يقومون بعدّة أمور:

أ - تحديد العقيدة السلمية التي يجب على المسلم التعبّد بها والتديّن على

= وبخصوص الأمر الثاني نجد أنّ بعض الجماعات لم تع العصر، ولم تستهدف إقامة الإمامة العظمى، فكيف يمكن أن تكون مثل هذه الجماعات خطوة إلى جماعة المسلمين.

وبخصوص الأمر الثالث نجد أنّ الدكتور يهوّن مِن شأن اختلاف بعض الجماعات الإسلامية حول توصيف الواقع، أليس الاختلاف في توصيف الواقع يدل على اختلاف في الرؤية؟ ألا تنبني عليه نتائج ضخمة في مختلف شعب كيان الجماعة؟ فكيف يمكن أن يكون خلافاً هيّناً ؟!!

أساسها.

ب- إصدار أحكام فقهية مستندة إلى أصول صحيحة سليمة في كل ما يحتاجه المسلمون في مجال عباداتهم ومعاملاتهم.

ج- تحديد فهمها للإسلام في كل المجالات: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية بالاستناد إلى الكتاب والسنّة وفهم السلف الصالح.

د - فهم الحضارة الغربية الفهم الواسع وتقويمها التقويم الصحيح، والاجتهاد في الاستفادة منها فيما يمكن الاستفادة منه في مجال العلوم الإنسانية والتكنولوجية، وتحديد صور الاستفادة ومجالاتها.

هـ - تقويم العلوم الإسلامية لتحديد المنعطفات التي مرّت بها، وتحديد العناصر الإيجابية التي يمكن البناء عليها في وقتنا الحاضر، وتحديد العناصر المَرَضِيّة البعيدة عن الصواب التي يستحسن التحذير منها، وإلقاء الأضواء عليها مِن أجل الابتعاد عنها في مجال التطبيق والعمل.

و- دراسة تاريخنا دراسة مفصّلة، وتحديد الأمراض التي أصابت الأُمّة الإسلامية، والعوامل التي أدّت بها إلى الانتكاس، وستقود هذه الدراسة إلى

معرفة الأمراض وأسبابها، وتحديد أولويّات العلاج على أساس أولويّات الأمراض.

ز - جمع الحقائق اللازمة عن المسلمين في كل الأرض، وتكوين فكرة عن تجمّعاتهم وأحوالهم، وإقامة الاتصالات معهم، ومحاولة رفع الحَيْف والظلم عنهم، ومد الأيدي إليهم، والتعاون معهم.

ح- توصيف الواقع وإصدار الحُكم الشرعي المناسب عليه.

ط- استخدام الأساليب الشرعية المناسبة والمرتبطة بالتوصيف السابق مِن أجل تغيير هذا الواقع.

٣- تأخذ بالجهاد، لأنّ الطائفة الظاهرة موصوفة بأنها مجاهدة كما وصفتها الأحاديث التي نقلناها مِن قبل، ولأنّ الجهاد وسيلة رئيسية في إحقاق الحق في الأرض، وفي ردع الباطل وفي الدفاع عن حُرمات المسلمين وأعراضهم، وتحصيل حقوقهم، ولأنّ الجهاد حقيقة ماضية إلى قيام الساعة كما ذكر الرسول ﷺ فقال: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغْنَم" [(١)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر (٩/٤٥٢).

٤- تظهر على غيرها بالحق الذي تطرحه، فهي بالتالي تكون معروفة ومشهورة لدى المسلمين، كما تنتصر على الباطل في نهاية المعركة التي تقوم بينها وبينه.

والآن: ما هي أبرز الأعمال التي يجب أن تقوم بها هذه الطائفة الظاهرة في عصرنا؟ وما أبرز الواجبات الملقاة على عاتقها والتي يجب أن تقوم بها؟

هذا ما سنجيب عليه فيما يلي.

ثالثاً :

أبرز الأعمال والواجبات التي يجب أن تقوم بها الطائفة الظاهرة

١- الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك، ويكون ذلك: بنشر معتقدات التوحيد وترسيخ العلم بها عند المسلمين، وتوضيح أثر الالتزام بها، ومحاربة الشرك، والتنبيه على صُوَرِه المختلفة، والتحذير مِن الوقوع به، وتوضيح دوره في إهلاك الأُمم السابقة، وفي إبعاد أُمّتنا عن سدّة القيادة للبشرية.

٢- الدعوة إلى السنّة ومحاربة البِدْعة، ويكون ذلك: بتوضيح حُكم السنّة ومكانتها بالنسبة للتشريع الإسلامي، وأهمية الاقتداء بالرسول ﷺ، وأثر ذلك على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، وتوضيح خطورة البِدْعة وأثرها في حياة المسلمين.

٣- نشر العلم الشرعي بين المسلمين وذلك: بنشر مختلف العلوم الإسلامية بين المسلمين حسب أهمّيتها الشرعية والتي تدور حول المحاور التالية:

أ – القرآن الكريم:

الاهتمام بالقرآن الكريم وتفسيره وحفظه، والاهتمام بالعلوم المرتبطة به والمعروفة بـ (علوم القرآن الكريم) والتي تشمل معرفة المكّي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والقراءات إلخ...

ب– الحديث الشريف:

الاهتمام بالحديث الشريف ومعرفة الصحيح منه، والاهتمام بكُتُبه ونشر المعرفة بها بين المسلمين، وتعميم المعرفة بمصطلح الحديث الشريف، وبكتب الرجال التي تقوم على الجرح والتعديل.

ج– اللغة العربية:

الاهتمام باللغة العربية، ونشر الكتب المجمع على جودتها، وتوجيه الناس إلى تداولها مِن أجل الإرتقاء باللسان العربي وإذهاب العُجْمَة، وتوسيع الاهتمام بالعلوم المرتبطة بها: كالبيان والبديع والبلاغة والنحو، والاهتمام بتوضيح أوجه الإعجاز في القرآن الكريم والاستفاضة في ذلك لأنه أساس عظيم مِن الأُسس التي قامت عليها نبوّة محمد ﷺ.

د – التاريخ الإسلامي:

جمع وقائع السيرة، والحرص على تمحيصها بشكل كامل وصحيح، ونشر الكتب التي رَوَت تاريخ الأُمّة بمنهج سليم وبشكل موثوق وتعميمها، والدعوة إلى دراستها.

٤– الاجتهاد في إعادة تطبيق الشرع الإسلامي في حياة المسلمين، وإعادة الخليفة الإسلامي إلى مقام القيادة وسدّة التوجيه في العالم الإسلامي، والأخذ بالأسباب المؤدّية إلى ذلك، مِن توضيح لأهمّية الموضوع وشرعيّته، والاستفادة مِن الفرص التي يمكن أن تساعد على ذلك بعد دراسة الواقع ووضع الخطط اللازمة لذلك.

٥– المحافظة على مصالح المسلمين والدفاع عنها في وجه أعداء المسلمين وخصومهم، وعدم التفريط بأي جزء مِن مصالحهم.

٦– معارضة معسكر الباطل والكفر والفسوق وفضح مخطّطاته، وإلقاء الأضواء عليها، ودحض شبهاته، وتعريف المسلمين برجالات معسكر الباطل، وتعرية مواقفهم ليحذرهم المسلمون ويتعاملوا معهم حسب بعدهم عن الحق وأهله.

٧- مواجهة الحُكّام الكافرين والظالمين، وتوضيح جوانب كفرهم، والأحكام الشرعية المترتّبة على ذلك، والاجتهاد في قول كلمة الحق في وجههم، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب ما نص عليه الشرع وفصّله في قواعده وأحكامه.

٨- مجاهدة الكافرين، والقيام بواجب دفع اعتدائهم وأذاهم عن المسلمين.

رابعاً :

نظرة مقاصدية للموضوع

والآن يمكن أن ننظر لموضوع حُكم الجماعة في العصر الحاضر مِن خلال مقاصد الشريعة، فمِن المعروف أنّ القصد الأول للشريعة هو حفظ الدين، وهذا المقصد لا يتحقّق إلاّ بالجماعة، فهي التي تُعلي شأن الدين وترفع رايته، وتدعو إليه، وتدافع عنه، وتحمي بيضته، وبالأصل لا يتحقّق الدين على أرض الواقع إلاّ بالجماعة، وتأسيساً على هذه الحقيقة فإنّ إيجاد الجماعة المسلمة يكون مقصداً أوّلياً مرتبطاً بالمحافظة على الدين وبالمحافظة على المسلم مِن أن يتعرّض للفتنة والزَّيْغ بتوضيح الحق له ورعايته، والمنافحة عنه بكل الوسائل المتاحة في ذلك الوقت.

وكذلك المقاصد الأخرى للشريعة التي هي: حفظ النفس والعقل والمال والنسل، لابد لها مِن الجماعة التي ترعاها وتقوم بها وتحافظ عليها، وهناك جوانب أصلاً في هذه المقاصد لا يمكن أن تتحقّق إلاّ مِن خلال وجود الجماعة مِن مثل: كسب المال الحلال مِن الطُرُق الشرعية التي أحلّها الشرع والابتعاد عن المال الحرام الذي يأتي مِن طُرُق حرّمها الشرع، فلابد مِن التعاون على البر والتقوى لأجل تحقيق مثل هذا الهدف،

وكذلك للمحافظة على النسل لابد مِن الجماعة التي تقوم بشان الأسرة، وتأخذ بأحكام النكاح الشرعي، وتعين الناس على إقامته، وتبتعد بالناس عن الزنا والسفاح والوقوع في مهاوي الشهوات، وكذلك المحافظة على دم المسلم ورعايته وصَوْنه مِن أن يتعرّض للقتل أو الهلاك.

وقس على ذلك كثيراً مِن المقاصد المرتبطة بالمقاصد الكبرى الأولية، وكلّها تؤكّد ضرورة وجود الجماعة والانتساب إليها مِن أجل إقامة الدين بكلّياته إن لم يكن بجزئيّاته.

ويمكن أن ننظر للموضوع مِن زاوية المكَلَّف، فإنّ كونه محاطاً بجماعة يمكن أن تكسبه علماً شرعياً، وتبصّره بالواقع المحيط به، وتساعده في رفع الحَيْف والظلم عنه، وتقوده إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة.



الخاتمة

مِن الواضح أنّ سقوط الخلافة في مطلع القرن العشرين كان نتيجة لأكثر مِن عامل ومِن سبب، ولكنه مِن المؤكّد في الوقت نفسه أنّ هذا السقوط كان نتيجة لضعف جماعة المسلمين وتخلخل الترابط الجماعي بين المسلمين، وكان يُفترض أن يكون هذا الجانب مِن حياة المسلمين محط رصد ودراسة وتقويم وتصويب، لأنّ الحقيقة الجماعية ضخمة في حياة الفرد المسلم تتضح في إيجاب الجماعة في بعض العبادات كصلاة الجمعة والعيدين، كما أنّ الجماعة مَعْلم بارز مِن معالم النظام الإسلامي، كما أنه لا يستطيع المسلمون أن يؤسّسوا شيئاً في أرض الواقع دون جماعة تجمع بينهم، كما أنّ الوضع المستجد مِن غياب الخلافة والإمام يحتاج إلى أحكام وفقه جديدين يعالجانه ويدفعان بالمسلمين إلى الأمام، لذلك اجتهدت في هذا الكتاب أن أُبيّن كيف أنّ الجماعة تكوّنت منذ اللحظة الأولى التي انبثقت منها الدعوة الإسلامية، وأنّ الأوامر الإلهية جاءت صريحة بوجوبها في القرآن والسنّة، وأنّ الرسول ﷺ رعاها في كل مِن مكّة والمدينة، وقد بيّنت كيف أنّ العلماء لهم دور بارز فاعل في تحقيق لحمتها

وفي تسديد مسيرتها على مدار التاريخ الإسلامي، ثم بيّنت أنّ الانتماء إلى الجماعة المسلمة مازال واجباً في الحاضر كما كان في الماضي، ولم يغيّر مِن وجوبه شيء، وقد وضّحت في النهاية أنّ الذي شرعه الإسلام لانتماء المسلم هو الطائفة الظاهرة التي يقودها علماء الأُمّة الإسلامية في العصر الحاضر الذي غاب فيه الخليفة والشرع الإسلامي، كما كان انتماؤه في الماضي إلى جماعة المسلمين التي يقودها الخليفة (الإمام) عندما كانت الخلافة قائمة والشريعة الإسلامية مُحَكَّمة.

آمل أن أكون –في النهاية– قد ساهمت في حل إشكالية مِن الإشكاليّات التي يواجهها المسلم المعاصر، والتي تحول دون عودة الإسلام إلى التمكين في الأرض.

والحمد لله رب العالمين.





المصادر والمراجع حسب ورودها في الكتاب

١- القرآن الكريم.

٢- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن. القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، ط١ ١٣٢٣هـ.

٣- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن. القاهرة، دار الكتاب العربي، مصوّرة عن دار الكتب، ط ١٩٦٧.

٤- ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد بن عبدالله. صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند. تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. بيروت، المكتب الإسلامي، ط٣ ١٤٠٨هـ-١٩٨٨ .

٥- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٦- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة أبو عيسى. صحيح سنن الترمذي باختصار السند، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. بيروت، المكتب الإسلامي، ط١ ١٤٠٨هـ-١٩٨٨ .

٧- ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد بن عبدالله. ضعيف سنن ابن ماجه باختصار السند. تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. بيروت، المكتب الإسلامي، ط٣ ١٤٠٨هـ-١٩٨٨ .

٨- ابن أبي عاصم، أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني. السنّة، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. بيروت، المكتب الإسلامي، ط١ ١٤٠٠هـ-١٩٨٠ .

٩- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري. الجامع الصحيح (صحيح مسلم). بيروت، دار الجيل.

١٠- البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري. بيروت، دار الجيل.

١١- النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي الخرساني. صحيح سنن النسائي باختصار السند، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. بيروت، المكتب الإسلامي، ط١ ١٤٠٩هـ-١٩٨٩ .

١٢- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري. السيرة النبوية. بيروت، دار إحياء التراث العربي. ط ١٩٨٥ .

١٣- محمد الغزالي. فقه السيرة، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني. دمشق، دارالقلم، ط١ ١٤٠٢هـ-١٩٨٢ .

١٤- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. صحيح سنن أبي داود باختصار السند، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني. بيروت، المكتب الإسلامي، ط١ ١٤٠٩هـ-١٩٨٩ .

١٥- النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيي بن شرف النووي. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي.

١٦- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. القاهرة، دار الريان للتراث، ط١ ١٤٠٧هـ-١٩٨٧ .

١٧- ابن تيميّة، تقي الدين أحمد بن تيميّة الحراني الدمشقي. مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم. تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .

١٨- الشاطبي، أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي. الاعتصام. بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨ .

١٩- الألباني، محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة. بيروت، المكتب الإسلامي.

٢٠- الألباني، محمد ناصر الدين الألباني. صحيح الجامع الصغير. بيروت، المكتب الإسلامي.

٢١- الطبراني. تهذيب الآثار.

٢٢- الغزالي، أبو حامد محمد. المستصفى في علم الأصول. المطبعة الأميرية، ١٣٢٢هـ .

٢٣- النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيي بن شرف النووي. رياض الصالحين، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني. بيروت، المكتب الإسلامي.

٢٤- الشاطبي، أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي. الموافقات، تحقيق الشيخ عبدالله دراز. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.

٢٥- عماد الدين خليل. ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبدالعزيز. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٧ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥ .

٢٦- أبو زيد، الشيخ بكر بن عبدالله. حُكم الانتماء إلى الفِرَق والأحزاب والجماعات الإسلامية. مطابع الدرعية، ١٤١٠هـ .

٢٧- الدارمي. سنن الدارمي.

٢٨- التوبة، د. غازي. الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة وتقويم. بيروت، دار القلم، ط٣ ١٩٧٧ .

٢٩- الصــاوي، د. صــلاح. مــدى شــرعية الانتمــاء إلى الأحــزاب والجماعات الإسلامية. القاهرة، دار الآفاق الدولية للإعلام، ط١ ١٤١٣هـ-١٩٩٣ .

الفهرس

من إصدارات المؤلف

- الفكر الإسلامي المعاصر (دراسة وتقويم) ١٩٦٩م
- النكسة في بعدها الحضاري ١٩٧٣م
- في مجال العقيدة (نقد وعرض) ١٩٨٦م
- جذور أزمة المسلم المعاصر (الجانب النفسي) ١٩٩٣م
- الجماعة في الإسلام (المشروعية والإطار) ظ ١ ١٩٩٥م
- التغيير في العالم الإسلامي: أزمة موضوعية أم ذاتية؟ ١٩٩٦م
- أبو الأعلى المودودي فكره ومنهجه في التغيير ١٩٩٦م
- الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ ١٩٩٩م
- إشكالية النهضة: بين الفكر القومي العربي والصحوة الإسلامية ٢٠٠٢م
- النفس المسلمة: صور من بنائها وأحوالها ٢٠٠٥م
- كتاب القضية الفلسطينية: الواقع والآفاق ٢٠٠٥م

←

- لماذا سقطت الخلافة العثمانية :
  قراءة في عوامل ضعف الأمّة ٢٠٠٨م
- صفورية والمجاهد والفتى ٢٠١١م
- رؤى وآراء معاصرة : دراسة نقدية ٢٠١٢م